Al Bahith Journal for Social Sciences
Homepage:
https://journals.uokerbala.edu.iq/index.php/bjh

سياسة الملكة ماري ستيوارت تجاه البروتستانت في اسكتلندا(1561-1567)

Queen Mary Stuart's policy towards the Protestants in Scotland (1561-1567)

أ.د. حيدر صبري شاكر الخيقاني
Prof. Dr. Hider Sabri Shaker Alkheakany
haidr.s@uokerbala.edu.iq
07818109261

م.م. عباس مدلول كاظم
Abbas Madloul Kazem
abbas.madlol@s.uokerbala.edu.iq
07722106835

كلية التربية للعلوم الانسانية- جامعة كربلاء
College of Education for Humanities, University of Karbala

Abstract in English

Abstract

This research sheds light on the policies adopted by Queen Mary Stuart in Scotland towards Protestants during the period between (1561- 1567). It clarifies the nature of these policies within the context of the unstable conditions prevailing in the country due to the conflicts between Protestants and Catholics. This led her to adopt a policy of religious tolerance, through which she sought to maintain a balance between the competing religious denominations, while simultaneously practicing her Catholic rites at the royal court. The research also reveals the strong opposition the queen faced from some prominent Protestant clergymen, most notably John Knox, as well as the political challenges she faced from opposition due to decisions concerning her personal life, following her marriage to Lord Darnley and then to the Earl of Bothwell. Furthermore, the research examines the nature of the queen's relationship with Protestant clergy and the Catholic stance on this matter. In addition, it sheds light on her relationship with the political elite and the repercussions of this on the general situation in the country, both religiously and politically, explaining the circumstances that compelled her to abdicate in favor of her son, James VI.

Paper Info

Keywords

QueenMary Stuart,Scottish history,Scottish religious affairs

المقدمة

مثلت فترة حكم الملكة ماري ستيوارت (1561–1567) مرحلة محورية في تاريخ اسكتلندا، اذ شهدت البلاد حالة من الانقسام العميق بين الكاثوليكية والبروتستانتية، انعكست بشكل مباشر على المشهدين السياسي والديني، بعد ان عادت ماري من فرنسا عام 1561 اثر وفاة زوجها فرانسيس الثاني لتولي العرش الاسكتلندي، في الوقت الذي اصبحت به البروتستانتية المذهب الرسمي لإسكتلندا قبل اقل من عام واحد من وصولها، الا ان الملكة ماري قد تمسكت بالكاثوليكية مذهبا شخصيا لها، مما جعلها وضعها في موقف صعب تطلب منها تحقيق التوازن بين الكاثوليك والبروتستانت في البلاد، في الوقت الذي كانت فيه العلاقة بين الطرفين غير مستقرة .

تأتي اهمية دراسة موضوع السياسة التي اتخذتها الملكة ماري ستيوارت في اسكتلندا تجاه البروتستانت خلال المدة الواقعة ما بين(1561–1567)، من جوانب عدة من اهمها، طبيعة تلك السياسة وأثرها على مستقبل اسكتلندا السياسي، وسياسة التسامح التي اعتمدتها الملكة ماري لمنع اثارة أي من الطرفين(البروتستانت والكاثوليك) ضدها، والتي حاولت من خلالها تهدئة التوترات وعدم حدوث اية فتنة بين الطرفين قد تؤدي الى تهديد استقرار البلاد، وهذا ما جعلها تحرص على ممارسة كل طرف لطقوسه وشعائره بحرية، في الوقت الذي حافظت فيه على ممارسة شعائرها الكاثوليكية داخل البلاط الملكي فقط، إلا أن هذه السياسة اصطدمت بمعارضة شديدة من زعماء الإصلاح البروتستانتي، وعلى رأسهم جون نوكس، الذي كان يرى في ماري تهديدا للإنجازات الدينية والسياسية التي حققتها حركة الإصلاح عام 1560، إلى جانب التحديات التي واجهتها بعد زواجها من اللورد دارنلي ومن ثم من إلايرل بوثويل، مما زعزع من مكانتها السياسية، وأدى إلى توسيع هوة الخلاف بين البروتستانت والكاثوليك من جهة ومن مؤيديها ومعارضيها من جهة اخرى الامر الذي ادى الى إضعاف سلطتها وتنازلها القسري عن العرش لصالح ابنها جيمس عام 1567.

قسم البحث الى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة: تطرق المبحث الاول منها الى التحديات التي واجهتها الملكة ماري في ادارة الشؤون الدينية بإسكتلندا نتيجة الانقسام العميق بين الكاثوليكية والبروتستانتية، كما عرض موقفها من الكنيسة البروتستانتية ومحاولاتها المتمثلة في التوازن بين القوى الدينية المتصارعة. أما المبحث الثاني فقد اوضح اهم الاجراءات التي اتخذتها الملكة ماري تجاه اتباع الكنيسة البروتستانتية في اسكتلندا، فيما خصص المبحث الثالث لدراسة أثر سياسة الملكة ماري تجاه البروتستانت على خلعها عن عرش اسكتلندا، وسلط فيه الضوء على سياستها تجاه البروتستانت، واثر المفاوضات مع البابا وحكام بعض الدول الكبرى في أوروبا بشأن القضايا المذهبية على حكمها، كما ركز هذا المبحث على حدوث المعارضة ضدها من قبل بعض كبار رجال الدين البروتستانت.

المستخلص

يسلط هذا البحث الضوء على السياسة التي اتخذتها الملكة ماري ستيوارت في اسكتلندا تجاه البروتستانت خلال المدة الواقعة ما بين(1561-1567)، مبينا طبيعة تلك السياسة تحت ظل الاوضاع غير المستقرة التي كانت تعيشها البلاد اثر الخلافات بين البروتستانت والكاثوليك، مما جعلها تبنى سياسة التسامح الديني والتي سعت من خلالها إلى الحفاظ على التوازن بين الطوائف الدينية المتنافسة، في الوقت الذي كانت فيه تمارس شعائرها الكاثوليكية في البلاط الملكي، وقد بين البحث المعارضة الشديدة التي واجهتها الملكة من بعض كبار رجال الدين البروتستانت، وفي مقدمتهم جون نوكس، فضلاً عن التحديات السياسية التي واجهتها من المعارضة بسبب قراراتها المتعلقة بحياتها الشخصية، بعد زواجها من اللورد دارنلي ومن ثم زواجها من بعده من الإيرل بوثويل. كما بين البحث طبيعة علاقة الملكة برجال الدين البروتستانت وموقف الكاثوليك من ذلك، فضلا عن ذلك فقد سلط الضوء على علاقتها بالنخب السياسية، وتداعيات ذلك على الاوضاع العامة في البلاد من الناحيتين الدينية والسياسية، موضحا الظروف التي ارغمتها على التنازل عن العرش لصالح ابنها جيمس السادس.

الكلمات المفتاحية: الملكة ماري ستيوارت، تاريخ اسكتلندا، الشؤون الدينية الاسكتلندية.

المبحث الاول
التحديات التي واجهتها الملكة ماري في ادارة الشؤون الدينية بإسكتلندا

شهد القرن السادس عشر تحولات دينية عميقة هزّت أوروبا وأعادت رسم العلاقة بين الكنيسة والدولة، ففي فرنسا كان جاك لوفيفر ديتابلز Jacques Lefèvre d'Étaples[1] من أبرز الممهدين لهذه التحولات، إذ قام في مطلع العقد الثالث من القرن بترجمة أجزاء متعدّدة من الكتاب المقدّس إلى اللغة الفرنسية، مما أتاح للنصوص المقدّسة أن تصبح في متناول فئات واسعة من المجتمع، وأسهم في نشر الفكر الإصلاحي، وقد بلغت الأزمة ذروتها سنة 1534 في ما عُرف بقضية اللافتات[2]، حين تصاعدت الانتقادات الموجّهة للعقيدة الكاثوليكية لتصل حتى بلاط الملك فرانسوا الأوّل Francis I[3] ، الأمر الذي قابله برد فعل حازم تمثّل في حملات قمع شديدة، وفي هذا السياق تبلور الشعار السياسي-الديني: "ملك واحد، قانون واحد، إيمان واحد" un roi, une loi, une foi، تعبيرا عن وحدة السلطة الدينية والسياسية في فرنسا[4].

تجلى ذلك بوضوح في إنكلترا، خلال ثلاث عقود تغير الدين الرسمي أربع مرات تبعاً لتحولات العرش: فقد بدأ هنري الثامنHenry VIII [5] كاثوليكياً مخلصاً للبابوية، وحصل عام 1521 على لقب **"المدافع عن الإيمان"** لمعارضته أفكار مارتن لوثر Martin Luther[6]، لكن سرعان ما انفصل عن كنيسة روما عام 1531 وأسس كنيسة إنكلترا البروتستانتية لأسباب شخصية وسياسية تتعلق بوراثة العرش[7] وزواجه من آن بولين Anne Boleyn[8]، وتجلّى هذا التقلب بوضوح آبان حكم ابناءه الثلاث: اذ اعتنق إدوارد السادس Edward VI[9] البروتستانتية وفرض كتاب الصلاة بالإنكليزية وقوانين توحيد أكثر قرباً من الإصلاح، فيما فرضت العودة الى الكاثوليكية تحت حكم ماري تيودورMary Tudor[10] عام1553 تحديا للبروتستانت، ثم تولت الملكة إليزابيث الاولى Elizabeth I [11].العرش عام 1558 لترسخ البروتستانتية نهائياً مذهبا رسميا للدولة، وقد عُرف هذا المسار الأوروبي بالمبدأ اللاتيني **"من يحكم البلاد يحدد عقيدتها الدينية"**، اي أنّ دين الحاكم هو دين رعيته[12]. وعطفاً على ذلك يمكننا القول ان خيار الدين في اوروبا طوال القرن السادس عشر لم يكن خيارا شخصيا، بل كان إطاراً ممثلا للولاء السياسي والاجتماعي، اذ كان يفرض على الرعية اتباع دين او مذهب الحاكم تحت طائلة العقاب، ووسط هذه الانقسامات العاصفة، كانت إسكتلندا واقعة بين حليفين متناقضين مذهبياً فرنسا الكاثوليكية وإنكلترا البروتستانتية، ومع عودة ماري من فرنسا إلى عرش إسكتلندا عام 1561، وجدت نفسها أمام مجتمع اغلبيته على المذهب البروتستانتي الا انها تميّزت رغم إخلاصها للكاثوليكية، بقدر كبير من التسامح تجاه البروتستانت وهي سياسة يمكن وصفها بحرية العبادة او حرية الضمير، وقد اثارت تلك التوجهات لدينا إشكالية أساسية: هل كان هذا الموقف انعكاسا لقناعة شخصية متأثرة بنشأتها الفرنسية وتعليمها هناك، أم براغماتية سياسية اقتضتها الانقسامات الدينية العميقة في اسكتلندا؟ هذا ما سنوضحه في هذا المبحث، وبالرغم من إنّ هذه المرحلة المبكرة من حكمها لم نجد انها حظيت باهتمام المؤرخين او جرى إغفالها لصالح سنواتها اللاحقة المضطربة التي ركز عليها معظم الكتاب، وعليه يمكننا القول ان ايضاح سياسية الملكة ماري خلال مرحلة حكمها المبكرة يمكن ان تكون مفتاحا لفهم طبيعة شخصيتها وحدود سلطتها في مواجهة التحديات الدينية والسياسية المعقدة التي جابهتها في خضم انقسامات عصرها.

شهد النصف الثاني من القرن السادس عشر حدوث صراع بين البروتستانت وبين الكاثوليك في دول اوربية عدة، وكانت اسكتلندا واحدة من تلك الدول التي عصفت بها التقلبات الدينية، لكن بدرجة اقل عنفا من جيرانها، وبالرغم من ان حدت التوترات الدينية قد ازدادت بعد عودة ماري من فرنسا لتولي الحكم، بسبب الاسكتلنديين البارزين جون نوكسJohn Knox [13]، ثم جورج بوكانانGeorge Buchanan [14] في وقت لاحق، اللذان طرحا علانية تساؤلات جوهرية حول مدى وجوب طاعة الرعايا لملوكهم، ولم يُسهم هذا التوتر وحده في إضعاف موقف الملكة، بل تفاقم بفعل تشجيع الاتصالات السرية بين جيمس ستيوارت، إيرل موراي James Stewart, Earl Moray[15]. والملكة إليزابيث، التي اتخذت طابعاً استخباراتياً هدف إلى تعزيز التوافق المذهبي بين المملكتين، مما زاد من زعزعة سلطة الملكة ماري وأثر سلباً على مكانتها السياسية والدينية [16].

أمرت الملكة ماري بإقامة قداسها الاول في الكنيسة الملكية في هوليرود، صباح يوم الاحد الموافق 24 اب 1561، وهو اول يوم احد لها في المملكة، وكان الاستعدادات للقداس مألوفة بالنسبة لبلد لم يصبح رسمياً بروتستانتياً إلا منذ عام واحد، وقد وقف جمع البروتستانت منددين بذلك الاجراء وحاول البعض منهم اقتحام الكنسية لمنع اقامة الطقوس، لكن اللورد جيمس منع دخولهم، لذلك اقيم قداس ماري الاول في اجواء شديدة التوتر [17].

أصدرت الملكة ماري إعلاناً هاماً في اليوم التالي، الاثنين 25 آب 1561، عرف **بإعلان يوم الاثنين** The Monday Proclamation جاء فيه: **"بما أن الملكة صاحبة الجلالة قد أدركت المخاطر الكبيرة التي قد تنجم عن الانقسام القائم في هذه المملكة، بسبب الخلافات في الأمور الدينية، فهي ترغب بشدة في أن يتم تهدئة هذه الفتن وترتيب الأمور على نحو يليق بمجد الله وسلامة مملكتها، وتنوي اتخاذ هذا الأمر بناءً على مشورة هيئاتها العليا في أقرب وقت ممكن... لذلك... تصدر صاحبة الجلالة تعليماتها لجميع رعاياها، بأن لا يتجرأ أحد منهم، علانية أو سرا، على إجراء أي تغيير أو تجديد في الشؤون الدينية، أو القيام بأي فعل يتعارض مع النظام العام الذي وجدته جلالتها قائماً ومتبعاً عند وصولها إلى مملكتها، تحت طائلة عقوبة الإعدام... وتأمر صاحبة الجلالة وتُحظر على جميع رعاياها مضايقة أو إزعاج أي من خدمها أو الأشخاص المرافقين لها القادمين من فرنسا، بأي شكل من الأشكال سواء بالكلام أو الفعل أو المظهر... تحت طائلة نفس العقوبة"**[18]. يبدو لنا بالرغم من خلو الاعلان من التعصب الديني الا ان حادثة يوم الاحد 22 آب كانت شديدة التأثير على الملكة، وقد عكس الاعلان محاولتها تحقيق توازن ديني سياسي دقيق في إسكتلندا، وفرضت فيه التزاماً بعدم تغيير النظام الديني السائد للحفاظ على السلام والاستقرار، كما ضمن حماية حاشيتها الفرنسية، مما يدل على حدوث الصراعات الدينية في عهدها.

رفض جيمس هاملتون James Hamilton [19]. إيرل أرّان الثاني Earl of Arran II ، اعلان الملكة وسياستها في الشؤون الدينية، ووصف الملكة بوقاحة بأنها "تعبد الاصنام" وتحدى سلطتها علناً وانسحب من البلاط لأكثر من شهر، احتجاجا على قداس الملكة[20].

كانت الملكة حريصة على عدم القيام بأي شيء من شأنه أن يمنح موافقة قانونية على اعمال برلمان 1560 الإصلاحي، فقد كان هدفها منذ البداية هو استعادة المذهب الديني القديم، لكنها أدركت أن عليها أن تحقق ذلك بحذر، وإلا سيضيع كل ما كانت تأمل في تحقيقه سياسيا ودينيا، لقد تعلمت من قبل اخوالها ال غيز أن إعادة مملكتها إلى الكرسي الرسولي من شأنه أن يجلب مجدا عظيما لعهدها، وإذا تخلت عن إيمانها من أجل المذهب الجديد فسوف تخسر صداقة الدول الكاثوليكية[21].

كانت الأزمة الوشيكة التي تواجه الاصلاح الديني، والتي اعترف بها نوكس في مناسبات عدة، تتلخص في ما إذا كانت تصرفات ملكة اسكتلندا الشخصية سوف تظل خاصة أم أنها سوف تعمل كدليل للآخرين، لاسيما الكاثوليك، لكي يقتدوا بها، وباعتبارها الملكة الحاكمة، كانت تعلم بلا أدنى شك أن سلوكها يشكل سابقة للسلوك اللائق، وكان لشخصيتها تأثير متتابع على النظرة الدينية للمجتمع، حتى ولو لم تسعى هي الى ذلك[22]. ويبدو لنا ان خشية نوكس كانت في محلها اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار انها الشخصية الوحيدة التي يمكن للكاثوليك أن يلجأوا إليها، وان وصولها الى اسكتلندا كملكة كاثوليكية قد هدد نجاح البروتستانتية الاسكتلندية التي لم تترسخ بعد، وفتح الباب على مصرعيها أمام النقاشات الدينية.

وفي الأحد التالي لقداس ماري الاول، 31 آب 1561، اغتنم الواعظ جون نوكس الفرصة لإلقاء خطاب إدانة شديد اللهجة لقداس ماري، معتبرا اياه واحداً من أكثر القداسات خطورة على الاطلاق، وصرح **"إن قداساً واحداً يخيفني أكثر مما يخيفني إذا هاجم عشرة آلاف مقاتل من العدو الدين كله وقمعوه"**[23]. وكان نوكس قد حذر بالفعل من أن السماح لها بمثل هذه الحرية في ادارة الشؤون الدينية أمر خطير لأنه على حد تعبيره سوف **"يدمر قريباً وجه ذلك الصرح الذي أسسه الله بقدرته بيننا"**[24].

كوّنت ماري الانطباع الأكثر سلبية عن نوكس منذ ان كانت في فرنسا، وأخبرت ثروكمورتون أنها تعتقد أنه الرجل الأكثر خطر في مملكتها، فأرسلت في طلب نوكس أن يأتي إلى هوليرود، وفيها حدث أول تلك المقابلات، كانت ماري في سن الثامن عشر، بينما كان نوكس في السابعة والأربعين من عمره، وقد عد إدنبرة مكان نفوذه، الذي لم يكن مستعدا للتنازل عنه للملكة الشابة القادمة حديثاً من فرنسا، وقد عد أول لقاء له معها بمثابة معركة، يجب أن يخرج منها منتصراً، والا فأن الإصلاح الاسكتلندي بأكمله سيتعرض للخطر، وهكذا استعد لهذا اللقاء[25].

رأى نوكس ان جنس ماري في حد ذاته ضدها، وكان من الناحية النظرية في القرن السادس عشر يُنظر إلى حكم النساء للرجال على أنه مخالف للقانون الطبيعي، إلا أن معظم الناس كانوا راضين باعتبار أن حكم المرأة الفعلي شر لا بد منه قد يتعين تحمله من وقت لآخر[26]، كانت المعارضة لتولي النساء العرش متجذّرة في الأسس الدينية والفكرية السائدة آنذاك، إذ استندت إلى مبدأين رئيسيين اعتُبرا دليلاً على عدم طبيعية تولي المرأة للسلطة، الأول يتمثل في أن أوامر الله جعلت من واجب المرأة أن تخدم الرجل، معتبرة الطاعة فضيلة أنثوية. أما الثاني فيستند إلى العقوبة الإلهية التي لحقت بحواء بعد الخطيئة الأولى، والتي جعلت المرأة خاضعة للرجل بحكم المشيئة الإلهية، ووفقًا لهذا المنطق، لم يكن للمرأة أي حق طبيعي في الحكم، حتى في الحالات التي خلا فيها خط الوراثة الملكي من

وريث ذكر، وقد عبّر المصلح الديني جون كالف John Calvin[27]. عن هذا الموقف بقوله إن "حكومة المرأة تُعدّ انحرافًا عن النظام الطبيعي والسليم الذي وضعه الله، وهي من بين العقوبات التي فُرضت على البشرية نتيجة الخطيئة الأصلية"[28]. الا ان نوكس ذهب إلى أبعد من معاصريه[29]، وفي كتابه المعنون النفخة الاولى في البوق ضد فوج النساء الوحشي The First Blast of the Trumpet Against the Monstrous Regiment of Women، الذي كتبه ونشره في جنيف في أوائل عام 1558، هاجم فيه حكم النساء في أوروبا، خاصة الملكات الكاثوليكيات مثل ماري تيودور وماري غيز Mary Guise [30]. وكاثرين دي ميديتشي Catherine de' Medici [31]، وأعلن بشكل قاطع: إن ترقية المرأة إلى الحكم أو التفوق أو السيادة أو الإمبراطورية فوق أي مملكة أو أمة أو مدينة أمر يتنافى مع الطبيعة، وهو أمر يتعارض بشدة مع الارادة الالهية، وأخيراً فهو تقويض للنظام الجيد، وضد العدالة[32]. وعلى ما يبدو ان معارضة من اسباب معارضة نوكس لحكم الملكة ماري كان لجنسها ايضا وليس فقط لمذهبها الكاثوليكي.

رأى جون نوكس في حكم الملكة ماري تجسيداً للحكم غير الحكيم، وفي مطلع أيلول 1561 تم اللقاء الأول بين الخصمين، وعد ذلك إيذاناً ببداية مواجهة مباشرة بينهما، كانت ماري تتمنى أن تتوصل إلى تفاهم معه، لأنها كانت حريصة بالحفاظ على السلام في مملكتها، وبدأت المحادثة بكلمات مهذبة، أما جون نوكس فقد عزم على أن يكون عنيداً قدر ما يشاء وأن يُظهر لـها بأنه لا يميل إلى الانحناء قيد أنملة أمام أقوياء هذا العالم[33]. لكن الصلابة التي اظهرها نوكس امام الملكة ماري كانت قد ذابت امام إليزابيث، التي أحنى رأسه أمام توبيخها له بعد اصدار كتابه "النفخة الأولى للبوق ضد فوج النساء الوحشي"، حتى انه توسل اليها ان تسمح له بالقدوم الى انكلترا، لكنها رفضته بشكل قاطع، وعندما اثارت ماري نفس القضية معه؛ أجابها بأن له الحق في التعبير عن مثل هذه الآراء التي يؤمن بها بصدق[34].

واتخذ الحديث تدريجياً منعطفاً أكثر لذعاً، أظهرت ماري دهاءً يفوق سنها، ولم يكن هناك القليل من الحدة في تفكيرها سألته مباشرة: هل تعتقد أن الرعايا يجب أن يقاوموا أمراءهم؟ وبدلاً من إعطاء الإجابة السلبية التي كانت تتوقعها، تجنب نوكس، وهو مراوغ بالفطرة، النقطة الحاسمة بالانزلاق إلى ذلك بقوله: **"قد يصاب الأب بجنون، يقتل فيه أطفاله، إذا نهض الأطفال، وانضموا معاً، وألقوا القبض على الأب، وانتزعوا السيف منه، وربطوا يديه واحتجزوه في السجن حتى ينتهي جنونه، هل تعتقدين يا سيدتي أن الأطفال يسببون الضرر؟"**[35].

شعرت الملكة ماري بالحيرة من هذه الإجابة الجريئة وسألته: **" أرى أن رعيتي يطيعونك أنت، وليس أنا، ويفعلون ما تريده أنت، لا ما أريده أنا، وبالتالي يبدو أن لك سلطة أكبر من سلطتي، إذ تستطيع أن تجعلهم يطيعونك ويعصونني؟"**. فأجاب مراوغاً: **"حاشا لله أن أتولى قيادة أي شخص، إنني أريد أن أترك الرعايا أحراراً في فعل ما يرضيهم، إن مهمتي تتلخص في أن يطيع الله الأمراء والرعايا على السواء... إنه يطلب من الملوك أن يكونوا بمثابة الآباء بالتبني والملكات والأمهات المرضعات لكنيسته"**[36]، ولقد ردت الملكة ماري، التي كانت منزعجة بشدة من الغموض المستمر الذي أبداه المصلح، بحدة: **"لكنكم لستم الكنيسة التي سأرعاها، بل سأدافع عن كنيسة روما، لأنني أعتقد أنها كنيسة الله الحقيقية"**[37].

كانت نتيجة هذه المقابلة توتر العلاقة بين الجانبين، وبدلاً من أن تجلب المصالحة، لم تؤد إلا الى زيادة العداء بين الاثنين، وغادر نوكس الملكة فخوراً وسعيداً بتحديه ها، ولكنه أدرك أنها لم تكن دمية ضعيفة كما كان يعتقد، عطفاً على حياتها المترفة في فرنسا، وكتب عنها **"ان تمتلك كبرياء، وذكاء ماكر، وقلب جامد ضد الله وحقائقه"**، وابلغ سيسيل في لندن أنه عند لقائه بها، **"لمح فيها دهاء قلة نظيره في مثل هذا العصر"** [38].

اما الملكة ماري فعلى العكس من نوكس لقد تبين لها أن هناك حدودا لسلطتها الملكية، وشعرت بالانزعاج الشديد مدركة أن مبادراتها قوبلت بالرفض، وسرعان ما أُجبرت على الاعتراف بأن السلطة ليست شيئاً موروثاً مرة واحدة وإلى الأبد، بل يجب النضال من أجلها في صراع مستمر[39].

بعد ثلاثة أسابيع قضتها ماري في هوليرود، انطلقت في رحلة حول مملكتها، للاطلاع بنفسها على شعبها، اذ شعرت أن حقيقة المذهب البروتستانتي بحاجة إلى إظهار علني، وذهبت أولاً الى قصر لينليثغو Linlithgow Palace[40]، الذي ولدت فيه، وبعد يومين إلى قلعة ستيرلنغ Stirling Castle[41]، ومنها الى عدة مناطق بالمملكة، وفي كل محطة كانت تستقبل بحماسة استقبالاً مهيباً، واثناء رحلتها حدث في يوم الأحد 21 أيلول 1561 شجار بين رجلا الدين اللورد جيمس وهانتلي حول القداس، وعندما قال هانتلي إنه إذا أمرت الملكة بذلك، فسوف يقيم القداس في ثلاث مقاطعات، وهذا خلاف لم يكن متفق عليه بين ماري واللورد جيمس قبل عودتها الى اسكتلندا، وانتهى الشجار بمقتل رجل دين كاثوليكي، وقد عد موقف ماري متزن حين رفضت طلب هانتلي، ثم عادت إلى هوليرود، في 29 أيلول من العام نفسه[42].

ذكر نوكس أن ماري بعد انهاء جولتها في المملكة ظلت ثابتة على "آرائها الشيطانية"، على الرغم من الأدلة التي تلقتها والتي تفيد بأن معظم الناس يمقتون الكاثوليكية[43]. فيما شدد مستشارها جون ليزلي على تمسك ماري بالمذهب الكاثوليكي، واعتبر أن محاولاتها لتحقيق التسامح الديني قد أُسيء فهمها واستُغلت من قبل زعيم الإصلاح البروتستانتي جون نوكس[44]. ويبدو لنا ان رحلة ماري كانت تهدف الى إيجاد طريقة مناسبة لإدارة الشؤون الدينية في مملكتها وليس للكشف عن معتقدات الناس ولا معتقداتها الخاصة، التي كانت كما أخبرت ثروكمورتون بها بنفسها قبل بضعة أشهر من تلك الجولة انها كاثوليكية ثابتة، لقد كان الأمر يتعلق بإدارة اسكتلندا وحكومتها.

المبحث الثاني

الاجراءات التي اتخذتها الملكة ماري تجاه اتباع الكنيسة البروتستانتية في اسكتلندا

وجدت الملكة ماري نفسها عندما وصلت الى اسكتلندا، في موقف غريب من الناحية الإدارية فيما يتعلق بهيكل الكنيسة البروتستانتية، ففي السنوات التي سبقت الإصلاح الديني، كانت سلطة التاج الاسكتلندي على كنيسته الأصلية تتزايد مع كل عقد من الزمن، اذ حلت السيطرة الملكية القريبة تدريجياً محل سيطرة البابوية البعيدة[45]. فمنذ عام1535، تنازل البابا عن حق الملك جيمس ليس فقط في التوصية بل وأيضاً في ترشيح الأساقفة الشاغرين، وبما أن الدخل من المناصب أصبح من الممكن الآن منحه إذا رغب الملك لغير شاغليه الروحيين، فقد تطور النظام بأكمله إلى طريقة مفيدة للرعاية الملكية، وتوسعت العملية بسرعة كبيرة حتى أنه بحلول عام 1560، على حد تعبير غوردون دونالدسونGordon Donaldson [46]، **"لم يكن هناك إغراء مالي للتاج الاسكتلندي للمضي قدماً في قطيعة رسمية مع روما لأنها كانت تستغل بالفعل ثروة الكنيسة بأموالها الخاصة[47]"**

ولكن هذا الاستغلال للكنيسة من جانب الملكية لم ينته عندما تم تغيير ديانة اسكتلندا رسمياً بموجب مرسوم صادر عن البرلمان في آب1560، ولم تؤيد الملكة هذا المرسوم قط، الأمر الذي جعله غير قانوني من الناحية الفنية، ولكن على أية حال لم يتم اتخاذ أي ترتيبات في ذلك الوقت لربط المذهب الجديد بالنظام الكنسي القديم[48].

أ_ تمويلها للكنيسة البروتستانتية:

بحلول عام 1561 لم يتم اتخاذ أي ترتيبات مالية للوزراء الجدد، وكانت الملكة ماري حرة مثل أسلافها في المضي قدماً في تقديم المعاشات والمكافآت، ولم يكن هناك أي التزام على الإطلاق بتقديمها لرجال الكنيسة الإصلاحية، وعلى هذا فقد أصبحت التاج الاسكتلندي في ستينيات القرن السادس عشر، بعد أن تحرر من آخر بقايا السيطرة البابوية بفضل الإصلاح الديني، يتمتع بسلطات واسعة تجاه رعاياه، وكانت هناك فرصة ممتازة في هذا الصدد لملك كفء، إذا ما أحسن التصرف، لزيادة قوته، لأن الظروف كانت قد تهيأت لصالح التاج، كان هذا ينطبق على الملك الكاثوليكي بقدر ما ينطبق على الملك البروتستانتي طالما لم يُظهر الملك الكاثوليكي أية علامات على رغبته في إعادة الكاثوليكية إلى البلاد[49].

كانت الكاثوليكية كقوة روحية قد تراجعت مؤقتاً إلى الخلف بحلول الوقت الذي وصلت فيه ماري إلى اسكتلندا، وكان أحد العوامل في هذا التراجع هو الافتقار الملحوظ إلى الزعامة الكاثوليكية في ذلك الوقت، مما يعني أنه لم يتم بذل الكثير لحشد الكاثوليك في لحظات الأزمة، على سبيل المثال، ذهب جون هاملتون John Hamilton(1511-1571) رئيس الأساقفة خليفة بيتون المقتول عام 1546، الذي كان من الممكن أن يكون زعيماً كاثوليكياً، إلى فرنسا في عام 1560 ولم يعد أبداً، اما هانتلي فكان غير موثوق به بشكل ملحوظ كما أثبتت الأحداث[50].

تشير الاحداث إلى أن ماري نفسها كانت راضية تماماً بقبول حقائق الموقف، ولم تكن لديها الرغبة في إعادة الكاثوليكية من جديد خلال عامها الأول في اسكتلندا، يبدو أنها كانت ترى نفسها باعتبارها الحاكم الكاثوليكي القوي الذي يحكم شعبه البروتستانتي بسلام[51].

كانت الملكة ماري قادرة أيضاً على الاستفادة من الخلاف بين نوكس والأعضاء الأقل تطرفاً في الكنيسة البروتستانتية، أولئك الذين شككوا بشدة في شرعية مقاومة حاكم غير متدين كما اقترح نوكس، ولم يكن هذا الاخير، على الرغم من نفوذه الواسع، يتحدث باسم جميع أعضاء المذهب الإصلاحي بأي حال من الأحوال، وكما ذكر هو، فإن اللوردات البروتستانت كانوا عرضة لتأثير الملكة ماري[52].

وعندما أصدر مجلس مدينة إدنبرة إعلاناً مهيناً في 2 تشرين الأول 1561، وضع فيه القساوسة الكاثوليك في نفس فئة العاهرات والزناة، تمكنت الملكة ماري من قمع الإعلان وحرمان المجلس من امتيازاته، بالتعاون الكامل من كل من متيلاند واللورد جيمس، اللذان ألقيا باللوم على نوكس بشدة في الحادثة بأكملها، ثم عندما أقامت الملكة ماري قداساً في كنيستها الخاصة بمناسبة يوم جميع القديسين All Saints' Day [53]، تقرر أخيراً بعد مؤتمر بين زعماء البروتستانت أن يكون الملكة الحق في التصرف كما تشاء مع أسرتها على انفراد فيما يتعلق بمذهبها[54].

في الوقت الذي أصبحت فيه البروتستانتية المذهب الرسمي في إسكتلندا، ظل القساوسة البروتستانت يعانون من فقر مدقع، معتمدين على إحسان أبناء رعيتهم لتأمين معاشهم، بينما استمر النبلاء وكبار رجال الدين الكاثوليك في الاستئثار بمعظم إيرادات الكنيسة، وقد ساهمت الخلافات المذهبية وما صاحبها من اضطرابات في إضعاف سلطة رجال الدين الكاثوليك، الأمر الذي دفع العديد من الأساقفة ورجال الكنيسة إلى نقل مساحات واسعة من ممتلكاتهم إلى أقاربهم وأصدقائهم حفاظاً عليها من المصادرة، في المقابل، استولى عدد من اللوردات البروتستانت على أملاك الكنيسة خلال فترة الصراع، دون أدنى نية لإعادتها أو تخصيصها لدعم الكنيسة الإصلاحية الناشئة، وعندما اجتمعت الطبقات، بات من الواضح أن الوزراء البروتستانت عازمون على المطالبة بجزء من تلك الإيرادات لتأمين رواتبهم وضمان استمرار مؤسساتهم الدينية، مما كشف عن تعقيدات الصراع بين المصالح الدينية والسياسية والاقتصادية في إسكتلندا في ذلك العصر[55].

اتخذت الملكة ماري في شباط 1562 قرارات عدة لترتيب الأوضاع المالية للكنيسة الاصلاحية، وقررت أن يظل ثلثا عائدات المناصب في أيدي حامليها طوال حياتهم، اما الثلث الاخر تقرر ان يقسم بين الحكومة وبين الكنيسة البروتستانتية[56].

وقد اوجز نوكس القسمة قائلا" **اعطي للشيطان ثلثان، وقسم الثلث الاخير بين الشيطان والرب"**[57]. يبدو إن هذه التسوية أظهرت مرة أخرى أن ماري رسمت تمييزاً حاداً بين القداس الخاص في كنيستها والصالح العام في اسكتلندا، كما ساعدت أيضاً في تعزيز مصالح التاج.

وافقت الملكة في عام 1563، واقرها البرلمان، أن يكون للوزراء البروتستانتيين حق استخدام المنازل والأراضي الكنسية وأن يتم إصلاح الكنائس، وكانت محاولتها المتجددة للحصول على صداقة جون نوكس أو على الأقل موافقته رمزاً لرغبتها في الحفاظ على الوئام والسلام في مملكتها، على حساب الكاثوليك المتحمسين الذين كانوا لا يزالون يأملون أن تحارب من أجل قضيتهم[58].

اشاد سفير انكلترا توماس راندولف Thomas Randolph [59]. بذكاء الملكة ماري طيلة السنة الاولى من حكمها في اسكتلندا، بل أشار إلى أن أولئك الذين تصوروا أن الملكة تفتقر إلى الحكمة دهشوا من حكمتها وحسن تصرفها، وكان جزء من ذكاء الملكة الشابة هو أخذ الوضع المالي لرجال الكنيسة الجديدة على محمل الجد بما يكفي لتوفير احتياجاتهم، وكان راندولف يعتقد بأن الملكة ماري عند وصولها لأول مرة إلى اسكتلندا كانت متسامحة، ولاسيما فيما يتعلق بالشؤون الدينة، ونتيجة لذلك حصلت على شعبية واسعة[60]

تشير سجلات برلمانات اسكتلندا، خلال فترة حكم الملكة ماري، والتي حررها ر. ج. ستيوارت R. J. Stewart[61]، إلى غياب أي دليل يؤكد أن ماري كانت كاثوليكية متشددة تسعى لتأسيس طائفة دينية خاصة بها أو القضاء على الإصلاح البروتستانتي[62].

تعاملت الملكة ماري بحذر في قضية الخلاف بين البروتستانت وبين الكاثوليك وسعت الى التوازن بين الجانبين، ولم تعتمد على سياسة إقصائية لاحد الاطراف، وهذا يتناقض مع الصورة النمطية التي تصورها البعض ولم تكن خصم متعنت للبروتستانت، بل عكست سياسة واقعية للتعايش السياسي والديني في البلاط الاسكتلندي في ذلك الوقت[63].

بدأت سياسة الملكة الدينية تشهد تحوّلاً تدريجياً منذ مطلع عام 1563، إذ قُدِّر أن الكاثوليك بات يشكّل نحو ثلث سكان المملكة[64]، وقد أفضى ثبات ماري على معتقدها إلى بثّ روح جديدة من الثقة في نفوس أتباعها، حتى بات بعض الكهنة يجاهرون بإقامة القداس علناً، متحدّين بذلك قرارات المجلس الملكي، ومع تزايد أعداد العائدين إلى المذهب الكاثوليكي، بدا للكهنة أن ثمة إمكانية واقعية لاستعادة كامل الشعب إلى حظيرة الكنيسة القديمة، في الوقت ذاته، شاع أن عدداً من النبلاء ظلوا يشاركون في قداسات سرية، بل تداولت الأوساط السياسية شائعات حول احتمال ارتداد اللورد جيمس نفسه وعودته إلى المذهب الكاثوليكي [65].

ب_ موقفها من التشريعات الدينية:

جاءت الفرصة السانحة للملكة لترتيب الاوضاع الدينية بما يخدم رؤيتها، حين عقد برلمان ماري الاول عام 1563، اذ أعطى هذا البرلمان ماري مبرر جديد وتسبب في حدوث خلاف بين نوكس وبين اللورد جيمس، مما هدد بحدوث انقسام خطير في المعسكر البروتستانتي، كان من المتوقع أن يتم التصديق على معاهدة ادنبرة التي وقعت في6 تموز 1560، والمصادقة على القوانين التي أسست العقيدة البروتستانتية، وإذا لم تكن تصرفات البرلمان السابق معيقة، كما زعمت الملكة، فإن البروتستانت جعلوا معتقدهم تحت رحمة الملكة وبدى يظهر الإيمان الكاثوليكي اكثر رسوخا[66].

كان إغراء المصلحة الذاتية في أذهان القادة البروتستانت قوياً للغاية، لدرجة أنهم تجاوزوا مطلب الغاء المذهب الكاثوليكي بإجماع عام في هذه المرحلة، وقد أضاع اللوردات الفرصة الوحيدة التي أتيحت لهم في عهد ماري، لتوفير الأمن القانوني للمذهب البروتستانتي[67].

ناشد نوكس بغضب اللورد جيمس عندما رأى اتجاه الأمور في البرلمان، بصفته المدافع الأكثر حكمة عن البروتستانتية، الا ان الاخير كان يفضل مصلحته الذاتية، ويخشى أن يغضب الملكة وتقوم بحل البرلمان، واتهم نوكس اللورد جيمس بتفضيل مصلحته، وهو ما فعله لأنه كان يخشى أن ترفض الملكة تثبيته في منصب إيرل موراي، فنشب خلاف حاد بين نوكس واللورد جيمس حتى أنهما نادراً ما تحدثا مع بعضهما البعض لمدة عام ونصف تقريباً[68].

عقب رفع جلسة البرلمان، ألقى جون نوكس خطبة حادة أمام جمع من النبلاء، عاتبهم فيها بشدة على ما وصفه بتخاذلهم الجبان في الدفاع عن المذهب البروتستانتي، ولم يتردد نوكس في إدانة احتمالية زواج الملكة ماري من دون كارلوس أو أي أمير كاثوليكي، معتبراً ذلك فعلاً شريراً يعني القضاء التام على البروتستانتية في المملكة، وقد أثارت جسارة خطابه استياءً مشتركاً في صفوف الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء، وفي أعقاب ذلك، استدعته الملكة للمقابلة الرابعة والأخيرة، وجدد أمامها ذات المواقف الصريحة التي كان قد أعلنها في خطبته، فعزمت الملكة على تقديمه للمحاكمة، الا ان مستشاريها نصحوها بالعدول عن ذلك، هدأت الأزمة ظاهرياً، لكن التوترات الطائفية تعمقت واتسعت الهوة بين الجهتين، وبينما رأى اللوردات أن محاكمة نوكس أمر غير مناسب سياسياً، إلا أنه وجد نفسه معزولاً عن أغلب أنصاره، ليقف بمفرده تقريباً في مواجهة السلطة الملكية[69].

المبحث الثالث

أثر سياسة الملكة ماري تجاه البروتستانت على خلعها عن عرش اسكتلندا

خلال السنوات الأربع الأولى من حكمها الشخصي من عام 1561 حتى عام 1565، حظيت سياسات ماري الداخلية بنجاح كبير في المجالين الديني والسياسي، وعلى الساحة الدولية، احتفظت ماري باتصالاتها الدبلوماسية مع والقوى الكاثوليكية القارية، بما في ذلك البابوية، وفي الوقت ذاته، تم الحفاظ على العلاقات الودية مع الملكة إليزابيث على أمل إقناعها بقبول الوصاية الكاثوليكية[70].

كتب البابا بيوس الرابع Pope Pius IV[71]. في كانون الأول 1561 إلى ماري بقلق، مقترحاً عليها أن تتخذ من الملكة ماري تيودور نموذجاً لها في الكاثوليكية الاسكتلندية[72].

كانت الملكة ماري بعيدة كل البعد عن تبني أساليب ملكة انكلترا الراحلة ماري تيودور، وانصبت جهودها في تلك المرحلة على خطتها السياسية لكسب اعتراف الملكة إليزابيث بها كوريثة شرعية لها على العرش الإنكليزي، وفي هذه الخطة لم يكن من الممكن أن تعمل الكاثوليكية المعبر عنها بحماس إلا على إلحاق الضرر بها[73].

وبالرغم من اشادة البابا والكاثوليك بحكمة الملكة ماري خلال السنوات الأولى من حكمها، لكنها كانت بعيدة جدا عن تبني فكرة الإصلاح الكاثوليكي المضاد للبروتستانت، فلم تتقبل الفكرة حقاً ولم تكن في وضع يسمح لها مجرد التفكير بها، لانها كانت تفتقر إلى الأدوات الحيوية اللازمة للإطاحة بالمذهب البروتستانتي[74].

افتقرت الملكة ماري إلى جملة من الأدوات السياسية والعسكرية والدبلوماسية الضرورية التي كان لا بد من توفرها لتتمكن من تنفيذ إصلاح مضاد فعّال في اسكتلندا، كان من أبرز تلك العوامل غياب التزام جاد من فرنسا بدعم صراع طويل الأمد في البلاد، إذ اقتصر الموقف الفرنسي على مظاهر أولية للقوة دون استعداد فعلي للتورط في نزاع مستمر، كما أن إسبانيا، رغم علاقاتها الوثيقة بالكرسي الرسولي، لم تلتزم بإرسال مساعدات حقيقية يمكن التعويل عليها، وعلى الصعيد الدبلوماسي، لم يُتخذ موقف موحد من قبل القوى الكاثوليكية للضغط على إنكلترا، التي ظلت تشكل تهديداً مباشراً لحكم ماري، كذلك، كانت البابوية تفتقر إلى الواقعية في تقدير حجم المساعدات المطلوبة وضرورات الموقف السياسي والديني في اسكتلندا، وأخيراً، عانت المملكة من نقص حقيقي في عدد النبلاء الكاثوليك الموالين الذين يمكن الاعتماد عليهم في حال اندلاع غزو إنكليزي لدعم البروتستانت الاسكتلنديين، ما جعل موقف الملكة ماري ضعيفاً في مواجهة القوى البروتستانتية المحلية والدولية على حد سواء[75]. يبدو ان هذه العوامل مجتمعة قد انعكست على إضعاف موقف ماري السياسي والديني، لأنها كانت تعلم جيدا بدون هذه العناصر الأساسية، كان محكوما على أي حركة لإصلاح مضاد بالفشل، لذلك افتقدت القدرة على فرض إرادة ملكية مستقلة أو تمرير سياسة إصلاح مضاد فاعلة، ونتيجة لذلك اضطرت الملكة إلى انتهاج سياسة دينية مرنة، ويمكن القول إن هذا الضعف في الأدوات والدعم كان من بين الأسباب الرئيسية التي أفضت في النهاية إلى سقوط حكم ماري وسجنها.

لم تكن ماري تتمتع بالموارد الكافية، أو الدعم القوي، أو التعاون المتفق عليه من القوى الكاثوليكية الكبرى في أي وقت أثناء حكمها، كما أقر البابا بالوضع السياسي الصعب في اسكتلندا، معترفاً بأن النبلاء الاسكتلنديين لم يكونوا مؤهلين لاستعادة الكاثوليكية، كما كان الامر في انكلترا بعهد الملكة ماري تيودور[76].

أبدت البابوية اهتماماً ضئيلاً بشؤون اسكتلندا وبدلاً من المساعدة الملموسة التي تشتد الحاجة إليها، تصرف البابا بيوس الرابع دبلوماسياً، متجاهلاً نصيحة مبعوثه الخاص الذي أصر على أنه بدعم ستعود اسكتلندا قريباً إلى المذهب الكاثوليكي، أظهر لطف البابا تجاه إليزابيث الأولى، مخاطباً إياها بـ ابنتنا العزيزة في المسيح، وعدم رغبة روما في دعم الكاثوليكية بنشاط في اسكتلندا على حساب العلاقات الخارجية مع انكلترا[77].

وقد أدى موقف البابا الى سحب دعمه لمطالبة ماري بالعرش الإنكليزي، باعتبارها الوريثة الكاثوليكية لأسرة تيودور، وأظهر خليفته، البابا بيوس الخامس Pope Pius V [78]، في بعض النواحي اهتماماً أكبر بالشؤون الدينية الاسكتلندية، ولكن الإعانة الرومانية (20,000) سكودو Scudo [79]. جاءت مع مطالب غير عادية، وبالرغم من ان الملكة ماري لم تتلقى سوى اقل من ربع المبلغ المذكور[80].

طالبت البابوية الملكة بإعدام العديد من النبلاء البروتستانت البارزين، بما في ذلك ايرل موراي، وايرل وأرغيل، وايرل مورتون، لكن الملكة رفضت بشكل قاطع هذه المطالب، والقت لاحقاً باللوم على الكرسي الرسولي وخالها الكاردينال، وكلاهما حرمها من المساعدات اللازمة[81].

وتعثرت فرنسا وإسبانيا، وهما دولتان كاثوليكيتان رئيسيتان، في دعمهما للملكة، فاختارتا الدبلوماسية البرجماتية على التماسك الديني، ولقد أدت معاهدة كاتو- كامبريسس 1559، التي تم التفاوض عليها بين فرنسا واسبانيا وانكلترا في عهد إليزابيث، إلى دخول القوى الكبرى في عصر جديد من العلاقات الخارجية[82]. وفي نيسان 1560، زُعِم أن فيليب الثاني عرض على ماري غيز عدة سفن ومقاتلين ومساعدات مالية، ولكن بحلول آب، رحب فيليب بتحالف مع انكلترا، وبعث برسائل حسن النية إلى الملكة إليزابيث، متجاهلاً وعوده الى ماري غيز[83].

كان عرض إسبانيا للملكة الاسكتلندية بمثابة فرصة عظيمة للتحالف مع الكاثوليك الأسبان من خلال الزواج من دون كارلوس، ولكن بعد عدة سنوات من المفاوضات ولسوء حالته الصحية، فشلت هذه الفرصة، وكان الكاثوليك الاسكتلنديون ليرحبوا بهذا الاتحاد، ولكن من الصعب أن نصدق أن إسبانيا قد تلتزم بأي خطط مضادة للإصلاح الديني على حساب علاقتها بانكلترا، وعلى مر السنين ناشدت إسبانيا المساعدة، لكن الكثير من طلباتها لم تلق آذانا صاغية، وكان فشل إسبانيا في مساعدتها راجعاً إلى صراعاتها الخارجية مع فرنسا، ولم تكن المسائل الدينية ذات أهمية تذكر[84].

وعلى نحو مماثل، لم تقدم سياسة فرنسا تجاه اسكتلندا سوى القليل من المساعدة فبعد وفاة زوجها الملك فرانسيس الثاني، فقدت الملكة الاسكتلندية حظوتها في البلاط الفرنسي الذي تولته كاثرين دي ميديشي مؤخراً، والتي كانت معادية لأقارب ماري من اسرة غيز، واستمر هذا العداء في التأثير على علاقتهما على مر السنين، وفي غياب أي احتمالات قوية للمساعدة، اختارت ماري اتباع نصيحة الكاردينال وميديشي اللذين اقترحا عليها اقامة علاقات ودية مع انكلترا[85].

وكان هذا يتناقض مع العرض المزعوم الذي قدمه شارل التاسع بإرسال ست سفن كبيرة وسفينتين حربيتين ومهر متزايد قدره (20,000) فرنك، وربما كان تقريراً زائفاً محسوباً لإثارة العداء لعودة الملكة، وبعد ذلك بوقت قصير، تورطت فرنسا في حروبها الدينية الاهلية ودعمت انكلترا علناً الهوغونوتيين، وانتشرت الشائعات بأن كاثوين دي ميديشي متعاطفة مع قضيتهم[86].

وفي عام 1566 وبَّخت البابوية الملكة كاثوين دي ميديشي وابنها لأنهما لم يقدما للملكة ماري أي مساعدة ملحوظة[87].

يتضح لنا مدى تعقيد المشهد الدبلوماسي والديني في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، اذ لم تكن التحالفات تحكمها المبادئ الدينية وحدها، بل المصالح السياسية المتغيرة، فالادعاء بإرسال دعم بحري ومادي للملكة ماري يبدو أقرب إلى مناورة دعائية وظيفتها التأثير على الرأي العام الإسكتلندي وتعطيل الاستقرار الداخلي، لا التزاماً حقيقياً من شارل التاسع تكشف تحولات الفرنسية عن ازدواجية سياسية، اذ لم يعد الصراع الكاثوليكي-البروتستانتي مبدأً مطلقاً، بل ورقة تفاوض تستثمرها كل قوة أوروبية حسب مصالحها الآنية، أما استياء البابوية من موقف كاثرين دي ميديشي، فهو يعكس تصدعاً في وحدة الموقف الكاثوليكي الأوروبي، ويبرهن على تراجع سلطة روما في فرض إرادتها على العروش الكاثوليكية.

بدأت الملكة ماري، بمهارة سياسية لافتة، تحقيق تقدم ملموس في إدارة المشهد الديني المضطرب في اسكتلندا، فبينما كانت تسعى لتوطيد سلطتها التي كانت لا تزال عرضة للتهديد، لجأت إلى سياسة توازن محسوبة، إذ أبدت موافقة حذرة على عدد من المطالب البروتستانتية، في محاولة لدرء الشبهات عن نواياها الكاثوليكية ومواجهة

اتهامات الإصلاح المضاد، وقد نص اعلان يوم الاثنين الرسمي 1561 على عدم إحداث "أي تغيير أو ابتكار في الوضع الديني القائم عند وصول جلالتها"، وهو نص اتسم بقدرٍ ملحوظ من الغموض، إذ يبقى التساؤل قائماً: ما هو الدين الرسمي الفعلي في اسكتلندا في ظل رفض ماري الاعتراف ببرلمان الإصلاح لعام 1560 واستمرار الممارسات الكاثوليكية في العديد من المدن الاسكتلندة؟ كما أن استباقها نص الإعلان بعبارة "في غضون ذلك" يعكس نيتها الإبقاء على المسألة الدينية مفتوحة، بما يتيح لها هامشاً من المناورة السياسية دون التورط في التزامات حاسمة، وهو ما وفّر لها أداة تكتيكية للتحكم بميزان القوى الديني داخل المملكة.[88].

لقد عكست سياسة ماري في تجنّب إدخال تغييرات مفاجئة، ولا سيّما في القضايا الدينية، براعتها السياسية واستعدادها للإصغاء إلى توجيهات مجلسها ونصائح أقاربها الفرنسيين، وقد أشار جورج بوكانان إلى هذا التوجّه مؤكداً أن: **"الطريقة الأكثر فعالية، بل والوحيدة لتسوية الأمور في الوقت الحاضر هي عدم محاولة تغيير الشكل القائم للدين"**(89). ومع حلول عام 1565، كانت ماري في ذروة قوتها، وقد تحررت من وصاية شقيقها والكاردينال، لتتبنّى علناً سياسة قائمة على مبدأ التسامح الديني او ما اطلقت عليه حرية الضمير[90].

ابلغت الملكة ماري السفير البابوي نيكولاس دي غودا الذي وصل اسكتلندا في صيف 1562، بأنها لا تستطيع حتى أن تعده بمرور آمن بينما هو في اسكتلندا، ونصحته بالبقاء في الداخل قدر الإمكان، وان أي محاولة منه تتعلق بمحاولة تسليم أوامر البابا الى القساوسة ربما ستؤدي به الى الموت، وأوضحت له أنها ستكون عاجزة تماماً عن مساعدته إذا ما تعرض للخطر، فلم **يشعر غودا أن مخاوف ماري كانت غير مبررة، لقد تركت انطباعا شخصيا ممتازا عليه، وقبل كلماتها بأنها تنوي العيش والموت كاثوليكية، مهما كان وضع مملكتها**[91].

اقترح غودا على الملكة ماري تأسيس اكاديمية لتدريب الكهنة الكاثوليك، رفضت الملكة ذلك بكلمة واحدة واصفة إياه بأنه غير مجدٍ[92]. وردت ماري على رسالة جاءت من البابا يطلب فيها ارسال كهنة اسكتلنديين الى مجلس ترينت، بأنها ترفض بشكل قاطع الموافقة على إرسال كهنة اسكتلنديين إلى ذلك المجلس، بالرغم من تفانيها الشخصي للقضية الكاثوليكية، لكنها قالت إن إرسال وفد اسكتلندي بهذه الظروف غير المستقرة سيكون بمثابة انتحارا[93].

ادركت الملكة جيدا ان الاوضاع الدينية في اسكتلندا كانت غير واضحة للبابوية وكذلك لخالها الكاردينال في فرنسا، كان هدفها المستمر في رسائلها إلى الخارج هو شرح الانقسامات الداخلية، وموقفها المرن من ذلك للحفاظ على السلام، والتفاني للكاثوليكية في الخفاء، والتسامح مع البروتستانتية في العلن، ولكن بالطبع، كان من الصعوبة جدا شرح تلك الحالة من خلال الرسائل، إلى أولئك الذين لم يزوروا البلاد قط[94].

أعجب السفير البابوي غودا بسياستها الدينية مع الكاثوليك والبروتستانت، وأعلن أنه سمع الكثير من الأشياء من مصادر موثوقة عن تقواها الاستثنائية وثباتها في الإيمان، واستمر رأي روما في تفاني ماري الشخصي للكاثوليكية طوال معظم فترة حكمها، وقد أشاد البابا بيوس الخامس بحماسها الكاثوليكي[95].

بعثت الملكة ماري برسالة إلى البابا في عام 1565 تطلب فيها إعانة مالية وبررت ذلك بقولها انها سوف تستخدم الاموال: **"من أجل إزالة جميع أعداء الإيمان المقدس، وتحرير نفسها من أولئك الذين يزعجون السلام المذهبي، واستعادة الكنيسة**[96]، وإذا أخذنا الالتماس إلى البابا حرفياً، فإنه يبدو وكأنه يشير إلى أن الملكة كانت تنوي الإطاحة بالبروتستانت، وكان هذا هو رأي بعض الكتاب المعاصرين، أن ماري سعت إلى جلب المملكة التي اتبعت آراء كالفن، إلى طاعة كنيسة روما[97].

وبالرغم خطوات ماري تلك الا انها جاءت من اجل هزيمة معارضي الكاثوليكية فقط، الذين كانوا معادين للتسوية الدينية، وذكر المؤرخ جون بلاكوود John Blackwood(1879-1804) نظراً لأن الفرصة كانت متاحة بسبب غياب موراي وشركائه، للقيام بشيء من أجل الشرف والدين، وهو ما لم تجرؤ على القيام به بالرغم من امتلاكها جميع السبل، حتى اصبح واضح أن هدفها الحقيقي كان إنشاء أجندة متسامحة، وليس سياسة معادية للبروتستانت، لقد كانت الإعانة البابوية ضرورية لتعزيز سلطتها في الأشهر التي أعقبت تمرد موراي، ومن شأنها أن تساعد في دعم أفكارها بشأن التسامح الديني[98].

عُدّ الموقف التصالحي للملكة ماري في الشأن الديني تعبيراً عن استمرارية فكرية لسياسة والدتها ماري غيز، التي كانت وصية على عرش اسكتلندا خلال المدة(1554-1560)، وليس مجرد تكتيك مرحلي أو ابتعادا ظرفيّاً عن المبادئ الكاثوليكية، فقد تبنت ماري غيز نهجاً واقعيّاً تجاه الأزمات الدينية عبر منح الرعايا الاسكتلنديين ما عُرف اصطلاحاً بحرية الضمير، كآلية لاحتواء الصراعات المذهبية دون انحياز صريح إلى الفصائل الكاثوليكية المتشددة، وعلى عكس الصورة النمطية المتشددة للزعماء الكاثوليك[99]. ومن الراجح لدينا أن سياسة ماري الدينية قد تشكلت تحت تأثير الإرث الإداري لوالدتها، التي مارست سلطاتها كوصية على العرش بمرونة توفيقية بين الولاء

للكاثوليكية وإدارة التعددية الدينية، وانعكست تلك الميول الكنسية بوضوح في سياسات ابنتها ماري، التي حافظت على ارتباط وثيق بالمؤسسة الدينية الكاثوليكية، وإنْ تحت غطاء من الخطاب المعتدل.

وإلى جانب ارثها من والدتها، نشأت الملكة الاسكتلندية في بلاط الملك هنري الثاني، الذي كان يدعو إلى تعليم أفراد العائلة المالكة تعليماً إنسانياً، وربما أضاف تعليمها بعداً فكرياً إلى نظرتها المتسامحة للدين، ونتيجة للصراع الديني والسياسات القارية، تأثرت ماري خلال وجودها بفرنسا بالسياسة الدينية التسامحية التي اتبعتها الملكية الفرنسية[100].

بناءً على تعليم ماري الإنساني في فرنسا[101]، كانت مكتبة ماري الشخصية عبارة عن مزيج متنوع من المؤلفات التي تتعلق بعلم اللاهوت ويشير جرد كتب الملكة إلى أن نظرتها للحرية الدينية كانت جيدة، وتعكس العناصر الكاثوليكية الرومانية الواضحة تربيتها الدينية التقليدية، ومع ذلك، كانت مكتبتها تحتوي أيضاً على مؤلفات بروتستانتية، وهناك سبب كافٍ للاعتقاد بأنها قرأت بالفعل مؤلفات بروتستانتية واتخذت موقفاً غير متعصب تجاه أولئك الذين ينتمون إلى مذاهب مخالفة لمذهبها[102].

في المناقشات الدينية مع نوكس، ادع ميتلاند أنها أظهرت حكمة عظيمة، تحدثت ماري عن امتلاكها معرفة شخصية بالإيمان البروتستانتي من خلال قراءاتها ومن خلال سماعها لهذه المسألة التي نشب حولها الكثير من الخلاف، كما ذكر راندولف **"أنها قرأت خطب ثيودور بيزا Théodore de Bèze[103] واطلعت علناً على اتفاق القربان المقدس Sacred Covenant[104]. الذي أرسله سيسيل"**[105]

وعلى هذا فإن المرء يستطيع أن يدرك لماذا سعت ملكة اسكتلندا إلى جعل الحرية الدينية حقيقة واقعة، فأبدت تسامحاً كبيراً تجاه البروتستانت، ففي مناقشة مع ثروكمورتون، قالت ماري: **"إنني لا أقصد أن أرغم أياً من رعيتي، ولكنني أتمنى أن يكونوا جميعاً مثلي، لذا فأنا أثق في أنهم لن يجدوا من يفرض عليهم ضغوطاً"[106].**

وحتى بين البروتستانت في القارة، كان هناك اعتقاد بأن تصرفات ملكة اسكتلندا أظهرت قدراً من التسامح، وقد تبنى الهوجونوتيين موقفاً إيجابياً تجاهها، فقد أظهرت في نهاية المطاف كل ما يدل على تبني موقف متسامح تجاه العقيدة البروتستانتية والأمر الأكثر أهمية هو أنها كانت تحترم داخل مملكتها المعتقدات الدينية لرعاياها من خلال عدم مطالبتهم أبداً بحضور القداس[107].

اما بالنسبة لمنتقديها، فقد عدوا سياستها تلك تدل على عدم كفاءة الملكة وضعفها كحاكمة مستقلة، أو ما هو أسوأ من ذلك، دليل على طموحها الأعمى لوراثة العرش الانكليزي الأكثر هيبة[108]. الا ان ما هو راجح لدينا فبالرغم من ان سياسة الملكة ماري الدينية التي لا تخلو من بعض الاخطاء، لكن قراراتها بالمجمل كانت سليمة، اذ تصرفت بحكمة في علاقتها بالبروتستانت، لتجنب المزيد من الاضطرابات في مملكة مضطربة اصلاً، كما أن سياستها تلك كانت تتماشى مع تربيتها وقيمها الأخلاقية الأساسية وموقفها تجاه الدين، واثبتت الملكة ماري انها تختلف تماماً عن ملكتا انكلترا ماري تيودور ومن بعدها إليزابيث اللتين استمرتا في تنفيذ الاعدامات بحق المواطنين الانكليز باسم الدين، سواء كان ذلك بدوافع سياسية أم لا، بالمقابل لا يمكن اتهام الملكة الاسكتلندية أبداً بالاضطهاد الديني.

قدمت ماري تنازلات للوزارة البروتستانت بهدف تعزيز الدعم لحكومتها وترسيخ رؤيتها حول التسامح الديني، مما أسهم في توفير مساعدات مالية للكهنة السابقين، مع الحفاظ على البنية الأساسية للكنيسة التقليدية، كما استُخدمت هذه الأموال لدعم أسرهم وتمويل مشاريع مدنية، شملت إعانة الفقراء وإنشاء المستشفيات والمدارس، ومع ذلك، أثيرت انتقادات بشأن هذه السياسة، اذ اعتُبرت الضريبة المفروضة مدفوعة بالجشع أكثر من كونها نابعة من دوافع إنسانية أو سياسية، وقد اتهمت الملكة بانها قامت بمصادرة ثلث المناصب الكهنوتية التي يشغلها القساوسة البروتستانت[109]. الا انه ومن المؤكد أن الملكة كانت معتادة على عيش حياة فرنسية مترفة تتضمن الولائم والاحتفالات الباهظة الثمن، ولم تكن بلاطات أسلافها من الملوك الاسكتلنديين، وخاصة والدها، مختلفة عن ذلك، ففي عام 1565، قُدِّمت عريضتان باسم ماري إلى البابا تطالبان بفرض ضريبة على رجال الدين الكاثوليك تبلغ خمس دخلهم، وهذه الوثيقة تثبت انها لم تتعامل بتمييز بين رعاياها على اساس الدين، هذا من جانب اما من جانب اخر كانت فرنسا في ذلك الوقت قد توقفت عن دفع مهرها السنوي أثناء حروبها الدينية، مما اضطر الملكة لفرض تلك الضرائب لأنها اعتمدت على الإيرادات الكنسية لدعم نفسها وإدارتها[110].

خلال حقبة حكمها، أثارت مواقف الملكة تجاه البروتستانت جدلاً واسعاً في الأوساط السياسية والدينية حول احتمالية تحوُّلها عن الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتي تشير الوثائق التاريخية إلى أنه بحلول عام 1565، لاحظ السفير الإنكليزي توماس راندولف انزياحاً في سلوكياتها الدينية، اذ ثبُت أنها خرقت التقليد الكاثوليكي بتناول اللحوم خلال فترة الصوم الكبير، مع تقليص حضورها للطقوس الكنسية، وفي العام ذاته، سمحت ماري بإقامة وعظ عام ذي طابع إصلاحي، مما أذكى الشائعات حول تحوُّلها الديني، رغم أن جون نوكس أكد في رواياته أنها حضرت عظة

بروتستانتية مرة واحدة فحسب، ولم تُسجَّل لها أي إفصاحات رسمية أو فعلية عن تبني العقيدة الإصلاحية[111]، ومن جانبهم، عبَّر كل من سكرتيرها الخاص عن ثقة مُطلقة في قابلية الملكة للتخلي عن الولاء لكنيسة روما، خصوصاً إذا حظيت بدعم الملكة إليزابيث في هذا الصدد، وفي مراسلة موثَّقة إلى ويليام سيسيل، ذهب مايتلاند إلى تأكيد تأثير إليزابيث المحوري في توجيه خيارات ماري الدينية، مُصرحاً بأن الأخيرة "ستخضع لتأثيرها في الشأن الديني بسهولة"[112]، وبدوره أيد سيسيل هذا الطرح بالاستناد إلى اعتقاده بأن ارتباط ماري بالكاثوليكية لم يكن متجذراً كموقف اخوالها آل غيز، وفي إطار النقاشات المتعلقة بخلافة العرش الإنكليزي، تواترت أنباء عن تلقي الملكة نصائح من الكاردينال شارل دي لورين بضرورة اعتناق مذهب الكنيسة الانكليزية "الأنجليكاني" لتعزيز شرعيتها كوريثة محتملة للعرش، كما دُوِّنت ادعاءات بأنها أعلنت إيمانها بالعقيدة الأنجليكانية خلال مفاوضات الخلافة، رغم عدم وجود أدلة قاطعة تُثبت ذلك**[113]**.

كانت الملكة ماري مستعدة لتقديم تنازلات للملكة اليزابيث، حتى فيما يتعلق بالشؤون الدينية، مقابل الاعتراف بحقها في وراثة العرش الانكليزي، ومع ذلك، وقبل زواجها من دارنلي، عند بداية عام 1565نشب خلاف بينها وبين موراي، الذي انتقدها بسبب سياستها تجاه البروتستانت، كما أنها رفضت اقتراح راندولف بالتحول العلني إلى البروتستانتية، مؤكدةً موقفها بقولها: **"هل تريدني أن أجعل من ديني سلعة أو أن أخضع لإرادة وزرائك؟ لا يمكن أن يكون الأمر كذلك[114]"**.

رأى بعض المؤرخين أن تطلع ماري إلى العرش الإنكليزي كان مدفوعاً بالانتهازية والمصلحة الذاتية، مع إيلاء اهتمام محدود للاعتبارات الدينية، ووفقاً للمؤرخه جيني وورمالد، فإن اصطفافها مع البروتستانت كان نابعاً من إدراكها لقدرتهم على تقديم ما لم يكن متاحاً لها إذا ما لبت توقعات الكاثوليك في أوروبا واسكتلندا، وهو دعم مطالبتها بوراثة العرش الانكليزي[115]. اما رأينا فيمكن القول بالرغم من أن سياستها الخارجية كانت موجهة إلى حد كبير نحو إنكلترا، لكن ذلك كان مدفوعاً جزئياً برغبتها في استرضاء الفصائل المحلية والدولية المختلفة التي دعمت هذا التوجه ورغم ذلك، فإن سعيها إلى العرش كان نابعا من حقها الوراثي، شأنها شأن أي ملك آخر في التاريخ. وقد عد التنازل عن المطالب الملكية بالعرش الانكليزي، من شأنه أن يُعرّض مكانتهم للخطر، مما جعل من الصعب عليها التراجع عن حقها في وراثة العرش الانكليزي[116].

كان لأقربائها من طرف والدتها في فرنسا تأثير كبير في تعزيز طموحاتها، إذ حرصوا على دعم مكانة الأسرة من خلال تشجيعها على المطالبة بالعرش الإنكليزي، فقد كانت اسكتلندا دولة صغيرة مقارنةً بإنكلترا من حيث القوة والمكانة، وباعتراف إليزابيث بها كوريثة محتملة، كان من شأن ذلك أن يُعزز النفوذ الدولي لأسرتها، ويوفر لها فرصة لإعادة تأكيد مكانة الدين الكاثوليكي، ورغم اعتراض الكاردينال على هذا التوجه بسبب ولاء ماري للكاثوليكية، فإنها لم تستجب لنصائحه، إلا أن موقفه ربما أثّر على قراراتها لاحقاً[117].

في إطار سعيها لتعزيز المذهب الكاثوليكي تحت ذريعة التكيّف السياسي، تبنت ماري سياسةً تهدف إلى إحياء الهيمنة الدينية الكاثوليكية، ليس بهدف إزاحة البروتستانتية كليّاً، بل لتأسيس إطار ديني موحّد تتمتع بشرعيته المملكة، وفي مواجهة التصعيد النقدي من قِبل الجمعية العامة البروتستانتية، في حزيران 1565، وأصدرت ردّاً لاهوتياً-سياساً اكدت فيه على الحرية الدينية، اذ أعلنت: **"ليس من حقهم - ماضياً أو مستقبلاً- فرض وصاية على ضمائر الرعايا... كما لا يحق لهم إسباغ مديح يتناقض مع مبادئنا الروحية"[118]**. بالنسبة لنا يفسر هذا الموقف بوصفه دفاعاً عن شرعية سلطتها في مواجهة تحديات الإصلاح البروتستانتي، مع محاولة التوفيق بين الولاء الكاثوليكي وضرورات الحكم في سياق مجتمعي متعدد المذاهب.

وفي وقت لاحق من نفس العام، أبلغت السفير الانكليزي راندولف عن خططها لمنح الحرية الدينية في البرلمان القادم، وتم تكريم أربعة عشر شخصية كاثوليكية في ستيرلنغ وتم قبول العديد من الكاثوليك والمتعاطفين الكاثوليك في مجلسها أو تم ترقيتهم في المناصب، اذ قررت تغيير أرشيبالد دوغلاس البروتستانتي المتحمس الذي كان رئيس بلدية مدينة إدنبرة، واستبدلته بلورد كراجميلار الكاثوليكي، وأعادت اللورد جوردون إيرل هانتلي الخامس، وكلاهما مخلص لها، شعر نوكس بالتهديد من خطط ماري للمصالحة الدينية، وفكر في الانتقال إلى أيرلندا، بحلول عام 1566، انتقل إلى أيرAyr جنوب غرب اسكتلندا، رافضاً العودة إلى مكتبه في إدنبرة، وخلال الأشهر القليلة الأخيرة من حكمها، كان غائباً عن اسكتلندا تماماً[119].

وتأثرت مفاوضات زواجها (1563_1565) بالضغوط التي مارستها إليزابيث، التي هددت بسحب دعمها ومنعها من وراثة العرش إذا تزوجت من قوة كاثوليكية أجنبية كبرى، وبدلاً من ذلك، عرضت عليها الزواج من روبرت دادلي، إيرل ليستر، لإرضاء النبلاء البروتستانت في إنكلترا، ورغم الضغوط المستمرة لقبول هذا الاقتراح، رفضت ماري، إذ اعتبرت أن معتقدات دادلي البروتستانتية إلى جانب وضعه الاجتماعي المتدني وعلاقته الوثيقة

بإليزابيث، تحول دون الزواج منه، كما رفضت عروض زواج أخرى من أمراء بروتستانت، مثل ملوك الدنمارك والسويد، بسبب الاختلافات المذهبية[120].

وكان خالها الكاردينال لورين يسعى إلى تأمين تحالف فرنسي مع اسكتلندا وكسب دعم البابوية، أما اختيار ماري للورد دارنلي، فقد كان قراراً شخصياً يهدف إلى تحقيق التوازن بين مختلف الأطراف، إذ كان إنكليزياً وليس أجنبياً، وينتمي إلى طبقة اجتماعية متوسطة، مما جعله خياراً مناسباً من الناحية السياسية والدبلوماسية[121].

عُدّ دارنلي كاثوليكياً معتدلاً مع نهج ليبرالي للدين، بينما ظلت ماري مخلصة للكاثوليكية علناً، كان دارنلي أكثر دبلوماسية، وتجنب بعض جوانب حفل زفافهما الكاثوليكي وقد تواجد في الخطب البروتستانتية، بالرغم من رفض إليزابيث والبروتستانت لاحقاً، اقترح الإنكليز هذا الاتحاد في الأصل كبديل لدودلي، ربما كان الزواج، في اعتقاد الملكة ماري، هو الخيار الأفضل لأسباب عديدة: لتجنب التوترات مع إنكلترا بشأن الزواج الاجنبي، ولإرضاء تفضيلها وتفضيل روما للزوج الكاثوليكي، وتعزيز مطالبتها بالعرش الإنكليزي[122].

الخاتمة:

اتبعت الملكة ماري ستيوارت سياسة حكيمة تجاه البروتستانت في بلادها، اذ جسّدت نموذجاً لملكة راشدة ترفض ممارسة الحكم القسري تجاه رعاياها في الشؤون الدينية والمذهبية، فعلى الرغم من انها كاثوليكية الا انها حرصت على عدم اثارة رعاياها البروتستانت، وكان لتربيتها وثقافتها التي اكتسبتها خلال سنوات اقامتها في فرنسا اثرا في وعيها وتسامحها الديني والمذهبي، فقد تلقت هناك تعليماً إنسانياً متقدماً، ووجدت نفسها في بيئة البلاط الفرنسي التي ساهمت بشكل مباشر في تشكيل شخصيتها، وعزز من قناعتها بضرورة التسامح الديني وإيمانها بأن الحاكم الصالح لا ينبغي أن يفرض مذهب او دين بالقوة على رعيته، وعليه، فإن تعليمها المبكر والافكار التي تؤمن بالتسامح الديني التي اكتسبتها من معلميها، وعودتها لاحقاً إلى إسكتلندا شكّلت معاً أساساً موجهاً لمواقفها السياسية والدينية، وعلى الرغم من كونها كاثوليكية فقد اطلعت على العديد من الكتب الخاصة بالمذهب البروتستانتي، وهو ما يبدو غير متوقع من ملكة كاثوليكية متدينة، وعليه فلم يعد من المفاجئ، بل من الشائع، أن تكون ماري قد بحثت بنشاط وتعلمت عن الإيمان الإصلاحي خلال فترة وجودها في فرنسا وما بعدها، أثرت هذه المعرفة بعقيدة الإصلاح بشكل مباشر على استعدادها للعمل جنبا إلى جنب مع أولئك الذين اعترفوا بالإيمان البروتستانتي، مع بقائها وفية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية نفسها.

ومن الملاحظ ان الملكة ماري واجهت تحديات عدة بشأن تطبيق الإصلاح الديني الكاثوليكي المضاد في اسكتلندا، فقد رفضت بعض القوى الكاثوليكية، بما في ذلك البابوية، مراراً وتكراراً مطالب الملكة ماري للمساعدة، وفي غياب المساعدة الملموسة من الخارج بالتنسيق مع الدعم الكاثوليكي من الداخل، لم يكن أمام الملكة خيار سوى التعامل مع ما هو راهن بأفضل ما يمكنها، كما نلاحظ ان البابوية تعاملت مع الملكة ماري بازدواجية، اذ بالغت في بعض الأحيان بشكل غير صادق بمدح حماس الملكة الشابة الكاثوليكية على أمل إبقاء الباب مفتوحاً لعودة اسكتلندا إلى الكاثوليكية، في الوقت ذاته فتحت قنوات اتصال دبلوماسي مع ملكة انكلترا البروتستانتية اليزابيث.

وأدى انقسام الكاثوليك في اسكتلندا في بداية حكمها حول سياستها تجاه البروتستانت، إلى تعقيد الأمور بشكل أكبر، ولوح في الأفق احتمال اندلاع حرب أهلية، وكانت الملكة راغبة في تجنب بداية دامية لحكمها، ولذلك فقد اتبعت أجندة معتدلة فيما يتصل بالقضايا الدينية، كما وقف الواعظ نوكس بوجه طموحات الملكة ماري، فقوضت مواقفه محاولاتها لتوحيد المذاهب المسيحية في اسكتلندا، وكانت افعاله ومواقفه ضدها وعدم معاقبته دليلا على إيمانها بالتسامح الديني وحرية العبادة، ولم تكن راغبة في تقييد رعاياها في اختيارهم للمذهب، واملت أن يتفقوا معها في الرأي، وكان إخلاصها للإيمان الكاثوليكي بارزاً في حياتها منذ صغرها وكان الأساس الذي نمت منه سياستها الدينية، على الرغم من أنها استمرت في رفض اضطهاد البروتستانت، بل واعترفت بالبروتستانتية مذهبا رسميا لإسكتلندا، إلا أنها لم تفكر أبداً في فكرة تغيير مذهبها، ولم تؤدِ المحنة التي واجهتها لاحقاً إلا إلى تعزيز هذا الإيمان الذي ترسخ في شبابها.

الهوامش:

(1) جاك لوفيفر ديتابلز(1455- 1536): هو فيلسوف انساني فرنسي يُعَدّ من الشخصيات الرائدة في حركة النهضة الفكرية والإصلاح الديني المبكّر في فرنسا، تلقى تعليمه في جامعة باريس، وتأثر بالتيار الإنساني الإيطالي، وسعى إلى إعادة قراءة النصوص الدينية واللاهوتية على أساس العودة إلى المصادر الأصلية، قام بإعداد ترجمات وتعليقات على الكتاب المقدّس، وأصدر عام 1523 ترجمة فرنسية للعهد الجديد، تبعها سنة 1528 بترجمة العهد القديم، مما جعله من أوائل من نقلوا النصوص المقدّسة إلى الفرنسية. للمزيد ينظر:

Erika Rummel, The Humanist-Scholastic Debate in the Renaissance and Reformation, Harvard University Press, 1998.p. 121.

(2) قضية اللافتات: انتشرت في عهد ملك فرنسا فرانسوا الأول في صباح يوم 18 تشرين الاول 1534، ملصقات تدين الكاثوليكية، وأولئك الذين يدعمونها، مما جعل الحكومة تنفذ عملية إعدام جماعي في باريس لمعاقبة أولئك الذين شاركوا بها، بينما فرّ من استطاع الفرار من البلاد، حتى أن الملك أنشأ محكمة لاستئصال المتطرفين ضد الكاثوليك، وقد كانت هذه المحكمة ذراعا قضائية للملكية الفرنسية في مواجهة الفكر الإصلاحي، وجسّدت بوضوح الارتباط بين الدولة والكنيسة. للمزيد ينظر:

Mack Holt, The French Wars of Religion, 1562–1629, 2nd ed. ,Cambridge: Cambridge University Press, 2005, p. 28

(3) فرانسيس الأول(1515-1547): عد من أهم ملوك فرنسا خلال النصف الاول من القرن السادس عشر، ولد عام 1494 وتولى العرش بعد وفاة لويس الثاني عشر، وتزوج من كلود ابنة لويس الثاني عشر وانجبت له عدة ابناء ابرزهم هنري الثاني الذي خلفه على العرش، وعُرف بحبه للفنون والثقافة ورغبته في تعزيز قوة فرنسا، ومن أبرز المعارك التي خاضها معركة بافيا 1525 التي انتهت بهزيمته وأسره لمدة قصيرة من قبل الإمبراطور شارل الخامس، ولمواجهة قوة هابسبورغ المتزايدة، دخل فرانسيس الأول في تحالف مع السلطان العثماني سليمان القانوني، وهو التحالف الذي وُصف بأنه أول تحالف دبلوماسي بين دولة إسلامية ودولة أوروبية، شهد عهده بدايات الإصلاح الديني. للمزيد ينظر:

Knecht, R.J. Renaissance Warrior and Patron: The Reign of Francis I. Cambridge: Cambridge University Press, 1994,pp.5-44.

(4) Samantha M. Clement, Mary Stuart and the Foundation of Her Religious Pragmatism. Master's Thesis, University of Central Florida, 2024,p.6. Available at: https://stars.library.ucf.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=1034&context=hut2024

(5) هنري الثامن (1491-1547): هو ملك إنكلترا من عائلة تيودور، حكم خلال المدة (1509-1547)، عد من أكثر الملوك تأثيراً في التاريخ الإنكليزي بسبب دوره المحوري في الاصلاح الديني والسياسي في انكلترا، اذ قام بتأسيس الكنيسة الإنكليزية (الأنجليكانية) بعد نزاعه مع البابا حول فسخ زواجه من كاثرين الأراجونية، كما اشتهر هنري الثامن بعدة زيجات أثرت في السياسة والتحالفات الأوروبية، وبتشريعاته التي عززت سلطة الملك وأرست قواعد الحكم الملكي في إنكلترا، ومن الناحية الثقافية دعم النهضة الأدبية والفنية التي شهدتها البلاد. للمزيد ينظر: هربرت فشر، اصول التاريخ الاوربي الحديث من النهضة الاوربية الى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد واحمد عبدالرحمن مصطفى ، دار المعارف، مصر، 1962، ص66 ؛ محمد، عدنان أمين، حركة الإصلاح الديني في انكلترا 1517-1603، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى مجلس كلية التربية-جامعة الموصل، 2007، ص103 ؛ فارس فرنك نصوري، الملك هنري الثامن والانفصال عن الكنيسة الرومانية 1509-1547، مجلة ابحاث البصرة، المجلد 37، العدد 3، 2012، ص112.

(6) مارتن لوثر (1483-1546): قسيس وراهب ألماني، يُعد الشخصية المحورية المؤسسة لحركة الإصلاح البروتستانتي، أبرز أعماله كانت الخمسة والتسعون أطروحة (The Ninety-five Theses التي نُشرت عام 1517، وانتقد فيها بشكل أساسي ممارسة الكنيسة الكاثوليكية لبيع صكوك الغفران ورفض سلطة البابا المطلقة عليها، أكد لوثر على مبدأ "التبرير بالإيمان وحده"، رافضاً فكرة أن الخلاص يمكن شراؤه أو الحصول عليه بالأعمال فقط، ومشدد على

أن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للسلطة الروحية. للمزيد ينظر: احمد ناصر فاضل، مارتن لوثر واثره في الديانة المسيحية، مجلة العلوم الاسلامية، الجامعة العراقية، المجلد الاول، العدد 32، 2022، ص 202.

(7) مثل هنري الثامن أبرز مثال على كيفية السماح للمصلحة الشخصية بالهيمنة على الثوابت الدينية والسياسية للدولة، فقراره بالانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية وتأسيس الكنيسة الإنكليزية لم ينبع من قناعة إصلاحية أو رؤية لاهوتية، بل من رغبته في الطلاق والزواج مجددا لضمان وريث ذكر للعرش، بهذا التصرف وضع مصلحته الخاصة فوق مصلحة الأمة، محدثاً شرخاً دينياً عميقاً استمر أثره لقرون، يكشف لنا هذا الحدث كيف يمكن لنزوات الحاكم الفردية أن تغير مسار التاريخ بأكله، وكيف أن استغلال الدين لخدمة الطموحات الشخصية يؤدي إلى نتائج كارثية على استقرار الدول والمجتمعات، ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن هذا المثال هو أحد أبرز الأسباب التي دفعتنا لاختيار دراسة شخصية ماري ستيوارت كموضوع أكاديمي متقدم، لما لها من أثر بالغ في تشكيل السياسات وتغيير البنى والمفاهيم الاجتماعية والسياسية في عصرها، مما يجعلها نموذجاً مثالياً لتحليل العلاقة بين الشخصية الفردية وصنع القرار التاريخي.

(8) آن بولين (1501-1563): هي الزوجة الثانية للملك هنري الثامن، تنتمي من جهة الأب إلى أسرة بولين ذات الأصول التجارية التي صعدت إلى طبقة النبلاء في القرن الخامس عشر، ومن جهة الأم إلى واحدة من أعرق الأسر الأرستقراطية في إنكلترا آل هوارد، تزوّجها هنري الثامن عام 1533 بعد انفصاله عن الكنيسة الكاثوليكية ورفض البابا إلغاء زواجه الأول، كان لذلك الزواج أثر بالغ في التحولات السياسية والدينية في إنكلترا، أدّى إلى تغيّر هيكل السلطة الملكية والدينية، ورغم نفوذها الكبير في البلاط، سقطت آن ضحية المؤامرات والدسائس، فحُكم عليها بالإعدام في 19 أيار 1536 بتهمة الزنا والخيانة، تركت وراءها ابنتها إليزابيث التي أصبحت لاحقا واحدة من أعظم حكّام إنكلترا. للمزيد ينظر:

Eric William Ives, Politics and Religion During the Rise and Reign of Anne Boleyn,Unpublished Ph.D. dissertation, Louisiana State University, 2007,p. 17. https://repository.lsu.edu/gradschool_theses/4970.

(9) ادورد السادس (1537-1553): هو ابن الملك انكلترا هنري الثامن من زوجته الثالثة جين سيمور، وُلد في 12 تشرين الاول 1537 في قصر هامبتون كورت، ولكنه فقد والدته بعد اثنتي عشر يوماً من ولادته، أصبح إدوارد ملكاً في سن التاسعة بعد وفاة والده في 1547، نظراً لصغر سنه، تم تشكيل مجلس وصاية لإدارة شؤون الحكم، ميز حكم إدوارد القصير بإصلاحات دينية كبيرة دعمت مذهب الكنيسة الانكليزية، تحت إشراف مستشاره الديني الرئيسي، توماس كرانمر. من أبرز إنجازاته في هذا السياق كان تقديم كتاب الصلاة المشتركة، والذي تم تنفيذه على نطاق واسع في جميع أنحاء انكلترا بموجب قانون التوحيد لعام 1549، توفي في 6 جزيران 1553 بسبب مرض السل في قصر غرينتش، عن عمر ناهز 15 عاما. للمزيد ينظر:

Loach Jennifer ,Edward VI, New Haven: Yale University Press, 1999.

ناصر ثجيل منصور حسين الزهيري، انكلترا في عهد الملك ادوارد السادس (1547-1553)، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة ذي قار ، العراق ، 2017، ص32.

(10) ماري تيودور: المعروفة أيضاً باسم "ماري الدموية"، هي ابنة هنري الثامن وكاثرين أراغون، وُلدت في 16 شبط 1516. كانت أول ملكة حاكمة لإنكلترا، اذ حكمت من 1553 حتى وفاتها في 1558، يُذكر عهد ماري بمحاولاتها لاستعادة الكاثوليكية الرومانية في إنكلترا، اذ اضطهدت البروتستانت وأمرت بحرق نحو 300 شخص بتهمة الهرطقة، مما أكسبها لقب "ماري الدموية، للمزيد ينظر :

Anna. Whitelock, Mary Tudor: England's First Queen, Bloomsbury Publishing, 2016 .

رواء عيدان حسن البديري ، ماري تيودور واثرها في السياسة الانكليزية (1516-1558)، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية التربية للبنات ، جامعة الكوفة ، 2014، ص14.

(11) إليزابيث الأولى (1533-1603) هي ملكة انكلترا من عام 1558 حتى وفاتها في عام 1603. وُلدت إليزابيث في 7 ايلول 1533، وهي ابنة الملك هنري الثامن وزوجته الثانية، آن بولين، بعد وفاة والدها، كانت إليزابيث تعتبر طفلة غير شرعية بعد إعدام والدتها بقرار من الملك هنري الثامن، خلال فترة حكمها التي استمرت 45 عاماً، عرفت إليزابيث الأولى بترسيخ الكنيسة الانكليزية في انكلترا بعد فترة وجيزة من الحكم الكاثوليكي ماري الدموية، يعد عهدها من الفترات المهمة التي ازدهرت فيها البلاد من جوانب عدة. للمزيد ينظر:

Anne Somerset, Elizabeth I, Anchor Books, New York, 1991.p 5؛

احمد صالح عبوش، الملكة اليزابيث ، المكتب العربي للمعارف ، مصر ، 2015، ص7.

(12)Samantha M. Clement, OP. Cit. ,p. 7.

(13) جون نوكس(1514-1572) هو قائد الإصلاح البروتستانتي في إسكتلندا ومؤسس الكنيسة المشيخية الإسكتلندية، شارك نوكس في قتل الكاردينال بيتون في قلعة سانت أندروز عام 1546، والقي القبض علية وبعد إطلاق سراحه ذهب إلى إنجلترا، وعند تولت ماري تيودور العرش، ارتحل إلى القارة حيث أدت به الرحلات في النهاية إلى جنيف، حيث أصبح تلميذاً لـكالفن ثم عاد إلى اسكتلندا في عام 1555، وعرف بقوة شخصيته وقناعاته حتى تمكن من الفوز على العديد من الرجال البروتستانتية الكبار لقد كانت شخصيه مركبة من العديد من التناقضات، ويرى نفسه واعظاً مرسلاً من السماء، ويبشر بالعنف علانية، وقد عد موت الحاكم الظالم مبرراً تماماً، لقد أجرى اللورد بيرسي اوستاس في كتابه عن حياة نوكس فحصاً متعاطفاً للطبيعة الحقيقية للمصلح. للمزيد عن حياة نوكس ينظر:

Percy Eustace, John Knox, New York, Charles Scribner's Sons, 1937,p. 12,

(14) جورج بوكانان (1506-1582): هو مفكر ومؤرخ وشاعر ومنظر سياسي إسكتلندي، درس في فرنسا اللغات الكلاسيكية والإنسانيات، حصل على درجة الماجستير من جامعة باريس، واصبح استاذا في كلية Sainte-Barbe، عاد الى اسكتلندا عام 1561وشارك في النشاط السياسي والديني ودعم حركة الإصلاح الديني، وقلّد مناصب مهمة ، من أهم مؤلفاته السياسية: De jure regni apud Scotos، الذي يقول فيه بأن الملكية ليست مطلقة بل أنها تخضع لشروط، وأنه من حق الشعوب مقاومة الطغاة إن تخلّفوا عن واجبهم. للمزيد ينظر:

David. McOmish, Buchanan, George, In Encyclopedia of Renaissance Philosophy, edited by Marco Sgarbi, Springer, Cham, 2017p. 6.

(15) جيمس ستيوارت، ايرل موراي(1531-1570) هو الابن غير الشرعي للملك جيمس الخامس ملك إسكتلندا من علاقته مع السيدة مارغريت إيرسكين، كان الأخ غير الشقيق للملكة ماري، تولى جيمس منصب الوصي على ابنها، الملك جيمس السادس بعد تنازل ماري القسري عن العرش عام 1567، وأصبح الحاكم الفعلي لإسكتلندا، خلال فترة حكمه، دعم الإصلاح البروتستانتي وعارض النفوذ الكاثوليكي، مما جعله شخصية محورية في تاريخ الإصلاح الديني في إسكتلندا، اغتيل جيمس ستيوارت في 23 كانون الثاني 1570، ليصبح أول مسؤول حكومي يُقتل باستخدام سلاح ناري. للمزيد ينظر:

Claire L. Web, The Good Regent? A Diplomatic Perspective on the Earl of Moray, Mary Queen of Scots, and the Scottish Regency 1567-1570, PhD thesis, University of St Andrews, August 2007.p. 20.

(16) George Buchanan, The Tyrannous Reign of Mary Stuart, translated by W.A. Gatherer ,Edinburgh, 1958, p. 60.

(17)Antonia Fraser, OP. Cit. ,p. 191.

(18)Register of the Privy Council of Scotland, vol. 1, ed. John Hill Burton ,Edinburgh, 1877, pp. 171–173.

(19) جيمس هاملتون، إيرل أرّان الثاني (1516-1575): هو نجل إيرل أرّان الأول من زوجته الثانية جانيت بيتون كان الحفيد الشرعي للملك جيمس الثاني عبر والدته جان ستيوارت، الابنة الكبرى للملك، تولى منصب الحاكم العام Governor ووصي العرش Regent على اسكتلندا بين عامي(1543-1554) أثناء صغر الملكة ماري ستيوارت، يُعد من الشخصيات المحورية في الصراع على الوصاية، ووراثة العرش في حال وفاة ماري بلا وريث، لكونه آنذاك الأقرب دماً إلى العرش. للمزيد ينظر:

E. A. Dawson, Scotland Re-Formed, 1488-1587 ،Edinburgh: Edinburgh University Press, 2007, p .143.

(20) Christine B. Walton, The Catholic Queen, The Protestant Patriarchy: Mary, Queen of Scots and the Politics of Gender and Religion ,Hampshire, 2007,p . 25.

(21)Myrtle Farrar, The Impact of Mary Stuart's Marital Problems on the Protestant Reformation in Scotland, PhD diss., Southern California College, 1933.p. 33.

(22) John Knox, The History of the Reformation in Scotland, edited by William C. Dickinson London, 1949, Vol. 2, p. 8

(23)John Knox, The History of the Reformation in Scotland, OP. Cit ,p.9 ؛Stefan Zweig, OP , Cit ,p. 42.
(24) Ibid. , p. 14.
(25) Antonia Fraser, OP. Cit. ,p. 193.
(26) Then There Was One: How the Ruling Styles of Elizabeth I and Mary, Queen of Scots Affected the Outcomes of Their Reigns, Gettysburg College, Vol. 2, Article 7, Class of 2003, p. 4.
(27) جون كالفن(1509-1564): أحد أبرز المصلحين البروتستانت في التاريخ، أسهم بشكل واسع في تطوير الفكر الديني والسياسي خلال مرحلة الإصلاح الديني في أوروبا. وُلد في مدينة نوايون بفرنسا عُرف بصرامته العقائدية وتنظيمه الدقيق للكنيسة الإصلاحية، كما كان لفكره اللاهوتي تأثيرٌ عميق في بناء النظام الكالفيني الذي شكّل الأساس للعديد من الكنائس البروتستانتية في أوروبا وأمريكا. تميزت مؤلفاته، ولا سيّما مؤسسات الدين المسيحي Institutes of the Christian Religion، بتأثيرها الكبير في صياغة مبادئ الحكم الكنسي والفكر السياسي القائم على سيادة الإرادة الإلهية والنظام الأخلاقي الصارم. للمزيد ينظر:
John Calvin, Institutes of the Christian Religion, trans. Henry Beveridge, London: The Religious Tract Society, Vol. 1, 1845, pp. 10–12.
(28) John Calvin, Commentary on the First Epistle to the Corinthians, Vol. 18, Chapter 1, translated by Henry Beveridge, published on the Christian Classics Ethereal Library (CCEL), 1848.
(29) كان نوكس يعارض بشدة تولي النساء للحكم استناداً إلى أيديولوجيات دينية. للمزيد ينظر :
Constance Jordan, Women’s Rule in Sixteenth-Century British Political Thought, in Renaissance Quarterly, Vol. 40, No. 3, 1987, pp. 421-451.
(30) ماري غيز(1515-1560): هي والدة الملكة ماري ستيوارت، تنحدر من اسرة غيز الفرنسية النبيلة، زوجها الملك جيمس الخامس ملك اسكتلندا الذي اقترنت به عام 1538، وبعد وفاته تولّت الوصاية على ابنتها ماري من عام 1554 حتى وفاتها عام 1560. اتبعت في حكمها سياسات موالية لفرنسا والمذهب الكاثوليكي، وواجهت نشاط الإصلاح البروتستانتي والمعارضة من بعض النبلاء الاسكتلنديين. للمزيد ينظر:
Pamela E. Ritchie, Dynasticism and Diplomacy: The Political Career of Marie de Guise in Scotland, 1548-1560 ,PhD diss., University of St Andrews, 1999,p.12-18.

(31) كاثرين دي ميديتشي(1519-1589): هي ملكة فرنسا ووصيّة العرش، تنحدر من أسرة ميديتشي الإيطالية العريقة في فلورنسا، تزوّجت من الملك هنري الثاني عام 1533، وأصبحت بعد وفاته وصيّة على عرش أبنائها الثلاثة: فرانسوا الثاني، شارل التاسع، وهنري الثالث. لعبت دور سياسي محوري في تاريخ فرنسا، ولا سيّما خلال الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت (الهوغونوت). عُرفت بقدرتها على المناورة السياسية، وسعيها للحفاظ على وحدة الدولة الفرنسية، غير أنّ سياساتها، ولا سيما دورها في مذبحة سانت بارثولوميو عام 1572، جعلت شخصيتها مثار جدل واسع بين المؤرخين. للمزيد ينظر:
Author unknown, Catherine de’ Medici and the Art of Self-Definition in Sixteenth-Century France, Master’s thesis, American University, 2016,p. 5-22.
(32) Steven Ozment, Carlos Eire, and Ronald K. Rittgers, Protestant Resistance to Tyranny: The March of John Knox, in The Age of Reform, 1250-1550: An Intellectual and Religious History of Late Medieval and Reformation Europe , New Haven; London: Yale University Press, 2020, p. 419.
(33) John Knox, The History of the Reformation in Scotland, OP. Cit. ,p.9.
(34)Ibid. , p. 11.
(35)Quoted from :Antonia Fraser, OP. Cit. ,p. 193.
(36) John Knox, The History of the Reformation in Scotland, OP. Cit ,p.9؛Antonia Fraser, OP. Cit. ,p. 194.

(37) ويل وايرل ديورانت ، قصة الحضارة - بداية عصر العقل، ترجمة: محمد علي ابو درة، المجلد السابع، الجزء الاول ، دار الجيل ، بيروت ، 1988، ص ص174-179.

(38)David Hay Fleming, *Mary Queen of Scots, from Her Birth to Her Flight into England: A Brief Biography*, London: Hodder and Stoughton, 1898,p. 213..

(39) Stefan Zweig, Mary, Queen of Scotland, New York: Viking Press, 1936,p.48.

(40) قصر لينليثغو : قصر ملكي تاريخي يقع في مدينة لينليثغو بمقاطعة ويست لوثيان في اسكتلندا، بدء تشييده في أوائل القرن الخامس عشر بأمر الملك جيمس الاول (1406-1437)، واكمله بعد قرن تقريباً حفيده جيمس الرابع (1488-1513) وكان يُستخدم كمقر إقامة ملكي لعائلة ستيوارت الحاكمة. للمزيد ينظر:

Henry Paton (ed.), Accounts of the Masters of Work to thea Crown of Scotland, vol. 1 ,Edinburgh, 1957, pp. 166–178.

(41) قلعة ستيرلنغ: تعد واحدة من أكثر القلاع التاريخية أهمية في اسكتلندا، وتقع القلعة على صخرة كانت لبركان خامد شديدة الانحدار لا يمكن الاقتراب منها إلا من جانب واحد، مما يوفر لها موقعاً استراتيجياً يمكنها من التحكم في الطرق الرئيسية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، في كثير من النواحي، كانت ستيرلنغ أقوى وأكثر قوه في الدفاع عن ماري من لينليثجو، علاوة على ذلك، بينما كانت لينليثجو قريبة من البحر كانت ستيرلنغ تقع على حافة المرتفعات، وفي حالة اقتراب قوات إنكليزية، يمكن بسهولة نقل الملكة إلى المنطقة الجبلية. للمزيد ينظر:

Stirling Castle: Childhood Home of Mary, Queen of Scots, The Tudor Travel Guide, accessed August 17, 2024.

(42)Antonia Fraser, OP. Cit. ,p. 195.

(43) John Knox, Queen of Scots: The True Life of Mary Stuart. Boston and New York: Houghton Mifflin Company, 2004, p . 192.

(44) John Lesley, De Origine, Moribus, et Rebus Gestis Scotorum Libri Decem, Book X: De Vita Mariae Scotorum Reginae, ed. Bernard Söllradl, Edition Woldan, vol. 7,Vienna: Austrian Academy of Sciences, 2020, p. 154.

(45) Gordon Donaldson, Mary, Queen of Scots, London: Collins, 1974.p. 173.

(46) غوردون دونالدسون(1913_1993): مؤرخ اسكتلندي بارزا ومتخصص في تاريخ اسكتلندا، له العديد من المؤلفات التي تسلط الضوء على الجوانب السياسية والدينية في التاريخ الاسكتلندا، بما فيها كتاب ماري ملكة اسكتلندا الذي صدر عام 1974، يقدم تحليلاً عميقاً لحياة ماري ، ويركز على الأحداث السياسية والدينية التي شكلت حياتها وصراعاتها كملكة في فترة مليئة بالاضطرابات. للمزيد ينظر:

Gordon Donaldson, OP. Cit. ,p. 5.

(47)Ibid. ,p. 176.

(48)Rachel A. Gierzynski, Mary Queen of Scots and the Religious Question, Scotia: Interdisciplinary Journal of Scottish Studies, Vol. XXIX, Old Dominion University, 2005, p. 8.

(49)Ibid. ,p. 9.

(50)Gordon Donaldson, OP. Cit. ,p. 177.

(51)Ibid. ,p. 178.

(52) Antonia Fraser, OP , Cit ,p. 199.

(53) عيد يوم جميع القديسين: هو احتفال ديني مسيحي يُقام في الأول من تشرين الثاني من كل عام، خُصّص في التقليد الكاثوليكي الغربي لتكريم جميع القديسين، سواء المعروفين بأسمائهم أو المجهولين، الذين بلغوا مقام القداسة وارتبطت أسماؤهم بحياة الفضيلة والإيمان، نشأت جذور العيد في القرون المسيحية الأولى كمناسبة لتخليد ذكرى الشهداء، واتخذ صيغته الرسمية على يد البابا غريغوريوس الثالث (731–741م) الذي حدد له تاريخاً ثابتاً في الأول من تشرين الثاني، ثم عمّمه البابا غريغوريوس الرابع (827–844م) ليصبح عيداً عاماً في الكنيسة الغربية، ويُنظر إلى هذا العيد باعتباره تأكيداً لارتباط الكنيسة الأرضية Church Militant بالكنيسة السماوية Church Triumphant، وفكرة شفاعة القديسين ضمن العقيدة الكاثوليكية. للمزيد ينظر:

The Oxford Dictionary of the Christian Church, 3rd ed., ed. F. L. Cross and E. A. Livingstone ,Oxford: Oxford University Press, 2005, s.v. All Saints' Day ؛
عيد جميع القديسين: دراسة تاريخية ودينية ، مجلة التاريخ الكنسي ، المجلد 1، العدد 2.

(54) Antonia Fraser, OP , Cit ,p.199.

(55)Rachel A. Gierzynski, OP , Cit ,p. 10.

(56) Antonia Fraser, OP , Cit ,p. 200.

(57) ويل وايريل ديورانت ، المصدر السابق ، ص 174.

(58)Antonia Fraser, OP , Cit ,p.201,

(59) توماس راندولف(1525-1590): هو دبلوماسي إنكليزي بارز، شغل منصب السفير الإنكليزي في اسكتلندا خلال عهد الملكة إليزابيث الأولى، وكان من الشخصيات المحورية في العلاقات السياسية بين إنكلترا واسكتلندا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، تولى مهمات حساسة شملت متابعة أوضاع الملكة ماري ستيوارت، ونقل رسائل البلاط الإنكليزي، والتفاوض بشأن قضايا الزواج والدين والسيادة، اتسمت مراسلاته بالدقة والوضوح، وتشكل اليوم أحد أهم المصادر الأولية لدراسة السياسة الإنكليزية-الإسكتلندية في تلك الحقبة، عُرف بعلاقاته الوثيقة بكبار رجال البلاط الإنكليزي مثل ويليام سيسيل. للمزيد ينظر:

Calendar of State Papers, Foreign Series, of the Reign of Elizabeth, Vol. 7 (1571-1572), ed. Allan James Crosby ,London: HMSO, 1879.

(60)Calendar of State Papers, Foreign Series, of the Reign of Elizabeth, Volume 7 ,London: Her Majesty's Stationery Office, 1870, p. 328, no. 1085.

(61)ر. ج. ستيوارت: هو مؤرخ أكاديمي ومتخصص في تاريخ البرلمانات الاسكتلندية خلال العصر الحديث المبكر، يشتهر بعمله كمحرر رئيسي في مشروع "سجلات برلمانات اسكتلندا" The Records of the Parliaments of Scotland، والذي نشرته مطبعة جامعة أدنبره عام 2020 (المجلد الأول يغطي الفترة 1561–1567). يبرز ستيوارت بمهاراته في التحقيق الدقيق وتحليل الوثائق البرلمانية والسياسية، مما جعله مرجعاً أساسياً للباحثين في تاريخ اسكتلندا السياسي والديني في القرن السادس عشر. للمزيد ينظر:

R. J. Stewart, Ed., The Records of the Parliaments of Scotland, Vol. 1: 1561–1567. Edinburgh University Press ,2020,pp. xi–xx.

(62) Ibid. , p.89.

(63)Myrtle Farrar , OP , Cit ,p. 50.

(64) لم تتوفر إحصاءات سكانية رسمية دقيقة في اسكتلندا قبل القرن الثامن عشر، إلا أن معظم الدراسات الديموغرافية المعتمدة على سجلات الضرائب والكنيسة، وتحليل سجلات القضاء المحلي، تقدّر عدد سكان اسكتلندا في منتصف القرن السادس عشر بما يتراوح بين 500,000 و1,000,000 نسمة، ووفقاً لما يورده المؤرخ Michael Lynch، فإن عدد السكان كان في حدود 800,000 نسمة تقريباً خلال المدة 1560–1565، مع تركز الكثافة السكانية في السهول الوسطى ، لاسيما إدنبرة وسترلينغ وغلاسكو، بينما ظلت المناطق الجبلية ذات كثافة منخفضة. للمزيد ينظر:

Michael. Lynch, Scotland: A New History. London: Pimlico, 1992, p. 184.

(65)Gordon Donaldson, OP. Cit. ,p. 193.

(66) Christine B. Walton, OP , Cit ,p .27.

(67) Myrtle Farrar, OP. Cit ,p. 52.

(68) Christine B. Walton, OP , Cit ,p .28.

(69)Ibid. , p..29.

(70) Gordon Donaldson, OP. Cit. ,p. 195.

(71) بيوس الرابع(1499_1565): هو بابا الكنيسة الكاثوليكية خلال المدة (1559-1565)، اسمه الحقيقي جيوفاني أنجيلو دي ميديشي، وهو ينتمي إلى عائلة ميديشي الشهيرة في إيطاليا، ركز على تحسين الأخلاق وتنظيم الكنيسة داخلياً، بما في ذلك قضايا الانضباط الكنسي والتعليم الديني. للمزيد ينظر:

The List of Popes, The Catholic Encyclopedia. Vol. 12. New York: Robert Appleton Company, 1911. Accessed.

(72) The Papal Negotiations with Mary, Queen of Scots, During Her Reign in Scotland, 1561-1567, edited by John H. Pollen ,Edinburgh, 1901, p. 70.
(73) Antonia Fraser, OP , Cit ,p.244.
(74) Christine B. Walton, OP , Cit ,p.46
(75) Gordon Donaldson, OP. Cit. ,p. 198.
(76) Jenny Wormald, Mary, Queen of Scots: Politics, Passion, and the Last Kingdom ,London, 2001, p. 131.
(77) Jenny Wormald,, OP. Cit ,p .132.
(78) بيوس الخامس (1504_1572): هو البابا(225) للكنيسة الكاثوليكية، وُلد باسم أنطونيو غيزليري (Antonio Ghislieri) في إيطاليا، وتولّى الكرسي الرسولي خلال المدة(1566 -1572) يُعد واحداً من أبرز الباباوات الإصلاحيين في مرحلة ما بعد مجمع ترنت (1545–1563)، إذ نشط بقوة في تنفيذ قرارات المجمع، خاصة تلك المتعلقة بإصلاح رجال الدين والانضباط الكنسي. تميّزت بموقفه الحازم من البروتستانتية، وأصدر عام 1570 قرار الحرمان الكنسي ضد الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنكلترا، في وثيقة Regnans in Excelsis، داعياً إلى خلعها باعتبارها ملكة مهرطقة. وكنا لهذا القرار اثر بالغ في اعدام مارس تسيوارت كما سنلاحظ ذلك خلال الفصل الخامس، كما عُرف بدعمه القوى الكاثوليكية في أوروبا، وبجهوده في تحفيز التحالف الكاثوليكي الذي حقق النصر في معركة ليبانتو البحرية ضد العثمانيين عام 1571. للمزيد ينظر:
The List of Popes, The Catholic Encyclopedia. Vol. 12. New York: Robert Appleton Company, 1911. Accessed؛ Ludwig von Pastor, The History of the Popes from the Close of the Middle Ages, Vol. 18, Kegan Paul, Trench, Trübner & Co., Ltd., 1928, pp. 1–120.

(79) سكودو: هي عملة كانت متداولة في عدد من الدول والمدن الإيطالية والأوروبية خلال العصور الوسطى والحديثة، خصوصاً بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، تعود تسميتها إلى الكلمة اللاتينية scutum بمعنى "درع"، وظلت عملة السكودو شائعة في التبادلات التجارية والمعاملات الدولية، وارتبطت بقوة اقتصادية رمزية، خاصة في ظل العلاقات المالية بين الممالك الكاثوليكية الأوروبية.، للمعلومة ان 20 الف سكودو تساوي 60 الف جنيها استرلينيا، تعادل بالوقت الحالي 80 الف دولار امريكي. للمزيد ينظر دليل جامع العملات الايطالية:
Eupremio Montenegro, Manuale del collezionista di monete italiane, XI ed.
(80) Jenny Wormald, Mary, Queen of Scots: Politics, Passion, and the Last Kingdom, , OP. Cit ,p .132.
(81)Jenny Wormald, Mary, Queen of Scots: Politics, Passion, and the Last Kingdom, , OP. Cit ,p .132
(82) Myrtle Farrar, OP. Cit ,p .82.
(83) Christine B. Walton, OP , Cit ,p.37.
(84)Jenny Worm ald, Mary, Queen of Scots: Politics, Passion, and the Last Kingdom, , OP. Cit ,p .134.
(85)Ibid., 136.
(86) Christine B. Walton, OP , Cit ,p .46.
(87) Ibid. , p.47.
(88)Jenny Wormald, Mary, Queen of Scots: Politics, Passion, and the Last Kingdom, , OP. Cit ,p .137 ؛Christine B. Walton, OP , Cit ,p.41.
(89)George Buchanan, The Tyrannous Reign of Mary Stuart, OP. Cit , p. 66.
(90)Christine B. Walton, OP , Cit ,p.123.
(91)Quoted from: Antonia Fraser, OP , Cit ,p. 206
(92)Christine B. Walton, The Catholic Queen, The Protestant Patriarchy: Mary, Queen of Scots and the Politics of Gender and Religion (Hampshire, 2007,p . 32.
(93) Ibid. ,p. 33.

(94) Antonia Fraser, OP , Cit ,p. 206.
(95) The Papal Negotiations with Mary, Queen of Scots, During Her Reign in Scotland, 1561-1567, edited by John H. Pollen ,Edinburgh, 1901, p. 77
(96)Ibid. , p.78.
(97) Christine B. Walton, OP , Cit ,P.68.
(98) John Blackwood, History of Mary Stuart, Edinburgh: Blackwood Publishing, 1875,p . 185.
(99) Rachel G. Jezierski, Mary, Queen of Scots and the Religious Question, Scottish Studies Review, vol. 29, 2005, p. 1.
(100) السياسة الدينية للملكية الفرنسية: فضل هنري الثاني قدرًا من الإصلاح الكنسي خلال العقد السادس من القرن السادس عشر، مما أعطى دفعة قوية للهوجينوتيين الفرنسيين، وتسامح مع المعتقدات الدينية لعدد من النبلاء الإصلاحيين، وتحالف مع الملوك الأوروبيين البروتستانت ضد آل هابسبورغ الكاثوليك، بالرغم من سياسة التسامح التي اتبعها هنري الا انها لم تخلو الاضطهاد في بعض جوانبها، والتي كانت تهدف إلى احتواء نمو البروتستانتية في فرنسا، اما خليفة هنري الثاني ابنه فرانسيس زوج ماري فقد أجبرته مظاهرات الهوجينوتيين على اتخاذ تدابير تصالحية؛ وتم سن (مرسوم أمبواز) للعفو عن جميع السجناء الدينيين وتم إصدار إعفاء للأمير الهوجينوتي كوندي، وبعد توليها الوصاية في عام 1560، واصلت الملكة الوصي كاثرين دي ميديشي الترويج لموقف متسامح دينيا ودبلوماسيا. للمزيد ينظر:
Déclaration de Charles IX portant dispositions pour la pacification du royaume et le libre exercice de la religion dite réformée, sauf à Paris et alentours, Amboise, 19 mars 1563, enregistré au Parlement de Paris, FranceArchives.
(101) بالرغم أن الفكر الإنساني أكد على أهمية تعليم المرأة، فإن مشاركة الإناث التعليم مع الذكور لم تكن شائعة خارج البلاط الفرنسي، فقد تلقت إليزابيث الأولى دروسًا أقل صرامة من شقيقها إدوارد السادس، اذ ركّز هو على الدفاع عن عقيدته بالخطابة، بينما انشغلت هي بالترجمة والرسائل الدينية، هذا التفاوت يعكس اختلاف رؤية البلاط الإنكليزي لتعليم النساء، وقد نشأ كل من أطفال تيودور على تعليم بروتستانتي صارم، في حين تلقت ماري تربية كاثوليكية فرنسية، وهو ما أكسبها لاحقًا انفتاحا نسبيا على التعدد المذهبي لرعاياها، بتأثير من النزعة الإنسانية الفرنسية في البلاغة والفكر، واذا ما قورن بين التجربتين التعليميتين يتضح لنا ان تعليم ماري في انتج نهج أكثر مرونة، في جاء تعليم إليزابيث بسياسات قمعية ضد الكاثوليك، فاقت حتى محاكم التفتيش الإسبانية التي كانت تعدم حتى البروتستانت التائبين، لكن إنكلترا ذهبت أبعد؛ فقد أعدمت بين 1555 و1564 نحو ضعف ما أعدمت إسبانيا، ثم غذّت العداء للكاثوليكية، كما فُرضت عقوبات صارمة على من يرفضون العبادة الأنجليكانية أو يدعمون الكهنة الكاثوليك، حتى بلغ الأمر إعدام واحد من كل أربعة كهنة في عهدها. للمزيد ينظر:
Peter Grelle & Robert W. Scribner, Tolerance and Intolerance in the European Reformation (Cambridge: Cambridge University Press, 1996, p. 20.
(102) Robert Keith, History of the Affairs of Church and State in Scotland, from the Beginning of the Reformation to the Year 1568, eds. J. P. Lawson & J. C. Lyon ،Edinburgh, 1844–1850, vol. 1, p. 85
(103) خطب ثيودور بيزا (1519-1605) من الأعمال البارزة في التاريخ الديني، خاصة في سياق الإصلاح البروتستانتي، كان بيزا عالم لاهوت وقسًا بارزًا في جنيف، وخليفة جون كالفن في قيادة الحركة الإصلاحية. تُعتبر خطبه وكتاباته جزءًا مهمًا من تراث الإصلاح البروتستانتي، حيث ركزت على تعاليم الإيمان المسيحي والدفاع عن العقيدة البروتستانتية ضد الكنيسة الكاثوليكية. للمزيد ينظر:
Théodore de Bèze, Sermons sur divers passages de l’Écriture Sainte, ed. Simon Goulart ,Geneva, 1590.
(104) الاتفاق المقدس: هو مصطلح يستخدم في السياقات الدينية والسياسية للإشارة إلى تعهد رسمي أو ميثاق بين أفراد أو جماعات، غالبًا على أساس ديني، لضمان التزامهم بعقيدة معينة أو مبادئ محددة، يعرّف جورج بايلي الاتفاق المقدس بأنه:ميثاق رسمي قائم على أسس دينية، يُبرم بين جماعة أو أمة لضمان الالتزام بمبادئ إيمانية أو أخلاقية محددة، وغالبًا ما يكون له أبعاد سياسية واجتماعية تعزز وحدة الجماعة وتحدد التزاماتها تجاه الله والمجتمع. للمزيد ينظر:

George Bailey, Covenantal Theology and Political Identity, Oxford University Press, 1998, p. 45

(105) Register of the Privy Council of Scotland, 1545–1567, ed. John H. Burton ,Edinburgh, 1877–1898, vol. 1, p. 266.

(106) Rachel G. Jezierski, OP. Cit. ,p. 13

(107)Rachel G. Jezierski, OP. Cit. ,p. 14.

(108)George Buchanan, The Tyrannous Reign of Mary Stuart, trans. and ed. W. A. Gatherer ,Edinburgh, 1958, p. 63.

(109)Rachel G. Jezierski, OP. Cit. ,p. 14.

(110)Ibid. , p. 13.

(111)Robert Keith, OP , Cit , p .89.

(112)William Maitland to William Cecil, 1561, Calendar of State Papers, Scotland, vol. 1, pp. 509–510.

(113)Rachel G. Jezierski, OP. Cit. ,p. 14.

(114)Robert Keith, OP , Cit , p .90

(115)Jenny Wormald, Mary, Queen of Scots: Politics, Passion and a Kingdom Lost ,London, 2001, p. 131.

(116) Retha M. Warnicke, Mary, Queen of Scots, London, 2006, p. 163.

(117)Rachel G. Jezierski, OP. Cit. ,p. 15.

(118)Ibid. , p. 15.

(119) Robert Keith, OP , Cit , p .91.

(120) Ibid. , p.92.

(121) Ibid. , p.92.

(122) Rachel G. Jezierski, OP. Cit. ,p. 15.